لفظة " الشَّيخ " في شعر العصر العبَّاسيِّ الأول

(قراءة في الدِّلالة والاستعمال)

د. عيسى عبد الشافي إبراهيم المصري *

E.mail: essa977@live.com

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية

لفظة «الشَّيخ» في شعر العصر العبَّاسيِّ الأول
قراءة في الدِّلالة والاستعمال

د. عيسى عبد الشافي إبراهيم المصري

الملخص:

يتناول هذا البحث بالرَّصْد، والتَّتبع، والتَّحليل مفردة لغويَّة كانت لها صيرورتها في الدِّلالة والاستعمال في الفصيح الأدبيِّ من سياقات اللغة، فهو يرصد دلالاتها اللفظيَّة واستعمالاتها النَّصِّيَّة في شعر العصر العبَّاسيِّ الأول، وينطلق البحث من فرضيَّة مؤداها: إنَّ الاتِّفاق على التَّفسير أو التَّأويل السِّياقيِّ للفظة الدَّالة يقتضي توخِّي المعنى وتثبيتَه على الصُّورة الظَّاهرة لحظة الاستعمال، وهو ما يُسمَّى في النَّظر البنيويِّ التَّحليل المتزامن Synchronic.

ويأتي هذا البحث لقراءة لفظة الشَّيخ وفق هذا النَّظر، وسلك لذلك محاور عدة: تبدأ بالمحددات المنهجيَّة التي ترسم المنهج ووسائله القرائيَّة، يتبعها بيانٌ معجميٌّ للفظة الشَّيخ، يتبعه كشف دلاليٌّ للكلمة في الاستعمال الجاهليِّ، يتبعه كشف دلاليٌّ للفظة في الاستعمال القرآنيِّ، والأخيران مطلبان منهجيَّان لبيان الاتِّفاق والاختلاف بين السَّابق واللاحق، ثم يتبعهما تحليل مستفيض للفظة في العصر العبَّاسي الأول، فالخاتمة وخلاصة البحث.

وخلص البحث إلى أنَّ لفظة الشَّيخ في شعر العصر العبَّاسيِّ الأول لم يطرأ عليها أي تغيير في دلالتها المحوريَّة، وإنَّما بقيت محافظة على الاستعمال القديم لها، بيد أنَّ ذلك لم يمنع من ظهور بعض الدِّلالات الإيحائيَّة أو ظلال المعنى، وذلك متأتٍ من طبيعة اللفظة ذاتها وقدرتها على حمل هذه الدِّلالات والتَّعبير عنها.

مصطلحات أساسية: لفظة «الشيخ»، الشعر العباسي، الدلالة، الاستعمال.

The lexical item "Sheikh" in the first Abbasid poetry Tracing the item's semantic (literal) content and its contextual (pragmatic) use

Dr. Essa Almasri

Abstract:

This paper employs a morphological and etymological approach, tackles a lexical item used to be semantically and pragmatically salient in the literary sense of language context (contextual factors). This paper traces item's semantic (literal) content and its contextual (pragmatic) use in the first Abbasid poetry. The main concern of this paper is to show the unanimous agreement on the contextual meaning of the lexical item entails working out the meaning of the utterance at the moment of speech and this is called within the aegis of structuralism a synchronic analysis.

On the basis of the synchronic analysis, this paper has adopted different dimensions. They encompass respectively; the methodical restrictions that specify its methodology and its data collection approaches, lexical clarification, an analysis of this lexical item "Sheikh" as used in representative symbols in the pre-Islamic poetry and as used in the holy Quran. The two latter uses (In the holy Quran and in the pre-Islamic poetry) were employed as a standard against which the areas of similarities and differences between former uses and subsequent uses are shown. Subsequently , the paper elaborates and analyzes this lexical item with regards to the first Abbasid poetry, and this is the main concern of this research. Finally, it displays a conclusion and an abstract that sums up the research.

This paper concludes that the lexical item "Sheikh" has never undergone any semantic change on the context era. However, for it to maintain its old use indeed doesn't hinder the appearance of new denotations or connotations and this comes from its character which enables it to realize these new semantic roles.

Keywords: Sheikh Word, Abbasid Poetry, Semantics, Pragmatic Use.

مقدمة:

تُمثِّلُ اللفظةُ في العبارة الشِّعريَّة مرتكزًا دلاليًّا يضيء إظلام النَّص ويكشف عن غموضه وإبهامه، فالنَّص جملة من الألفاظ، والألفاظ جملةٌ من الدِّلالات، ولا يمكن تحديد المعنى التَّفسيريِّ أو التَّأويليِّ إلا بعد تحديد دلالة اللفظة كما اصطلح عليها العقلُ الجمْعيُّ اللُّغويُّ في استعمالاته السِّياقيَّة، وهو عقل لا يتظاهر عليه الخطأ أو السهو.

ولعل أكثر الألفاظ إشكالا تلك التي تكتسب سمة التَّطور ويُصاحِبُها فِعْلُه، فهذا يخلق مجموعة من الدِّلالات تُمثِّلها عصور متتابعة وتنظيمات اجتماعيَّة متباينة، ويتبدى الإشكال أمام النَّاقد في قدرته على الكشف عن الدِّلالة الأقرب إلى السِّياق النَّصِّيِّ، وإذا عرفنا أنَّ النُّصوص الشِّعريَّة بمحمولاتها الخياليَّة تتسع لمعظم الدِّلالات كان الإشكال يزداد أكثر فأكثر.

ويعمل الأخذ بفكرة التَّحقيب الدِّلاليِّ على التَّقليل من سوْرَةِ الإشْكال في المعنى الأدبيِّ، فوضْعُ دلالات الألفاظ في حقب متتابعة، ثم رصد سياقاتها في الاستعمال، ثم تخصيص كل حقبة بدراسة خاصة بها، يفضي إلى تقديم صورة أقرب إلى الدِّقة لحياة اللفظة تفيد في إدراك بعض جوانب المعنى وإيحاءاته التي لا يمكن النَّفاذ إلى أسرارها كاملة.

ويجيء هذا البحث لقراءة لفظة في حقبة، أمَّا اللفظة فهي (شيخ) وجاء اختيارها لما تُمثِّله من أهميَّة في الفكر العربيِّ الإسلاميِّ، فهي مدلول واصف لتمثُّلات زمنيَّة، واجتماعيَّة، وتعليميَّة، ودينيَّة، وهي تمثُّلات منها ما كان أصيلا ملازمًا للفظة في أصل وضعها، ومنها ما كان طارئًا عليها بفعل التَّطور الدِّلاليِّ وإيحاءاته، ولا نتأدى إلى تحديد ما للأصل وما للتَّطور إلا بقراءة سياقاتها الأدبيَّة.

وأمَّا الحقبة فهي العصر العبَّاسيُّ الأول، وجاء اختيارها بوصفها شاهدةً على مظاهرَ اجتماعيَّة وثقافيَّة كثيرة: كالشُّعوبيَّة، والزَّندقة، والمجون، والزُّهْد، كان بمكنتها التأثير في اللفظة وتطوير دلالتها وتوسيع إيحاءاتها، لتصبح مغايرة لما نتلمَّسُه في ما سبقتها من أحقاب جاهليَّة وإسلاميَّة.

وبالجملة، يجيب البحث عن التَّساؤلات الآتية: ما دلالة اللفظة في أصل وضعها اللغويِّ؟ وهل طرأ على أصلها المعجميِّ تطورات جديدة؟ وهل توقفت دلالتها الشِّعريَّة عند المعنى المعجميِّ؟ وماذا أضافت اللغة الشِّعريَّة إلى هذه اللفظة من معانٍ على المستوى السِّياقيِّ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها انشعب البحث إلى خمسة محاور: تبدأ بالمحددات المنهجيَّة التي ترسم المنهج ووسائله القرائيَّة، يتبعها بيانٌ معجميٌّ للفظة الشَّيخ، يتبعه كشف دلاليٌّ للكلمة في الاستعمال الجاهليِّ، يتبعه كشف دلاليٌّ للفظة في الاستعمال القرآنيِّ، والأخيران مطلبان منهجيَّان لبيان مواضع الاتِّفاق والاختلاف بين السَّابق واللاحق، ثم يتبعهما تحليل مستفيض للفظة في العصر العبَّاسيِّ الأول، فالخاتمة وخلاصة البحث.

محددات:

تطرأ على اللفظة العربيَّة، كغيرها من الألفاظ اللغويَّة في الألسنة الإنسانيَّة، تطوراتٌ تُضْفي عليها مدلولات جديدةً، تُكْسِبُها تعددًا في الاستعمال وتنوعًا في الاختيار؛ فيصبح أمام المتكلم مخزونٌ

من الدِّلالات يوظفها حيثما شاء في الكتابة العامة (الإبلاغيَّة)، وفي الكتابة الإبداعيَّة (الفنِّيَّة).

وما منْ ريب في أنَّ الدِّلالة في الكتابة عامَّةً والإبداعيَّة خاصَّةً سياقيَّةٌ تركيبيَّةٌ، تقوم على مجموع ألفاظ العبارة وتضامِّها معًا، وعلى بنائيَّة الجملة وتركيبها؛ ممَّا حدا بالنُّقاد إلى الأخْذِ بالعبارة أو الجملة دونَ الكلمة المفردة في بيان جدوى النَّص وجماله، قال عبد القاهر الجُرجانيّ: «إنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيثُ هي ألفاظ مُجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلِمٌ مفردة، وأنَّ الفضيلةَ وخلافَها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، ممَّا لا تعلُّقَ له بصريحِ اللفظ»[1].

وينظرُ الجرجانيُّ إلى اللفظةِ من وجهتين: ترى إحداهما أنْ لا قيمة جماليَّةً للفظة إلا في سياق الكلام حالَ كونه متعلقًا بعضه ببعض، فيتَّخذ السِّياق حَكَمًا على جمال اللفظة وحُسْنِها؛ فقد تكون في سياق رائقةً مؤنِسَةً، وقد تكون في آخر ثقيلةً موحِشةً حسب تعبيره[2]. ومثل هذا النَّظر جماليٌّ صِرْف يقوم على تلمُّس الألفاظ وجمالها تبعًا لموقعيتها في السِّياق.

وأما الثانية فترى أنَّ اللفظة في حال تجردها وانفرادها تحمل دلالة خالصة هي الدِّلالة المعجميَّة، لكنَّها سَرعانَ ما تتخلى عنها عند دخولها السِّياق الكلاميَّ لترتبط بالألفاظ المتعلقة بها، فتنشأ دلالة جديدة قد تأخذ شيئًا من الدلالة المعجميَّة وقد تمتد بها امتدادات مخالفة لها، ويكون الرَّابط بينهما هو الكلام المنطوق المعبَّر به عن المعنى المقصود، أو بلفظة مختصرة (السِّياق[3]).

ولهذا فإنَّ عناية الجرجانيِّ بالسِّياق[4] متأتية من كونه دالا على جمال أو قبح، ولا يُتأدَّى إلى التَّمييز بينهما إلا بطريق الدِّلالة التي ينتظمها السِّياق؛ ممَّا يعني أنَّ تحديدَ دلالة الألفاظ وانتظامَها في السِّياق مطلبٌ جماليٌّ «فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلَّف ضربًا خاصًّا من التَّأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دون وجه من التَّركيب والتَّرتيب»[5]، وهذا الضَّرب من التَّأليف هو ملاءمة اللفظة للتي تليها دلاليًّا، واتِّساقها في نسق يحتمل التآلف والانسجام اللذين يستند إليهما الجمال؛ وهو ما يؤكِّد أنَّ المعنى والجمال منوطان بالسِّياق وقرائنه الدَّالة. والخطاطة الآتية تبين مسير اللفظ نحو الجمال أو القبح:

لفظ مجرد دلالة مجردة (معجميَّة) سياق دلالة سياقيَّة = معنى = جمال / قبح

وعلى الرَّغم من قدرة السِّياق على تحديد المعنى وتبيين الجمال والقبح، فإنَّ غموضًا قد يجتاح الألفاظ، في طريقةا إلى المعنى، ويَحولُ دون تحديد مدلولاتها، وقد ينتج هذا عن التَّعدد في المعنى المعجميِّ، أو صلاحيَّة غير واحد من المعاني للفظ الواحد في الاستعمال السِّياقيِّ، أو عن طبيعة اللفظة ذاتها وما تتضمنه من غموض دلالتها في أصل وضعها، أو اتِّساع الألفاظ واحتمالها لتأويلات مختلفة تبعًا لسياقها، قال (إمبسون Impson): "والغموض نفسه يمكن أن يعني التَّردد وعدم اتِّخاذ قرار بشأن ما تعنيه أنت، بمعنى أنَّ الغموض قد يعني القصد إلى العديد من الأشياء، أو بمعنى آخر، الغموض هو احتماليَّة أنْ يعني الإنسان أمرًا أو آخر أو الأمرين معًا. كما قد يعني الغموض أن تكون للعبارة معان متعددة"[6]. فالتَّعدد إذن رهنُ الغموض، وكي يكون النَّص متعددًا عليه أن يكون غامضًا، وعلى هذا

يصير الغموض سِمةً إيجابيَّةً تغني النَّص وتثريه.

ومعلوم أنَّ ألفاظ النُّصوص الأدبيَّة، شعرًا كانت أو نثرًا، أكثر عرضة للغموض من ألفاظ النُّصوص اللغويَّة الأخر؛ لأنَّ الأديب في صناعته لا يسعى إلى تقديم أفكار واضحة كلَّ الوضوح؛ فلغته لغة عميقة ذات جذور خياليَّة[7]؛ لذلك يعمد فيها إلى استعمال كلِّ وسائل تنشيط الخيال كالمجاز والاستعارة والكناية...، وهو في هذا كلِّه على وعي بأنَّ ما يستعمله من ألفاظ وما يصطنعه من قوالب فنيَّة يخدم نصَّه الأدبيَّ، ويجعله أكثر قدرة على المضيِّ في الكشف عن مكنونات اللغة وأسرارها.

وقد أدرك النَّقدُ العربيُّ القديم هذا الأمر، فنجد الجرجانيَّ يسوق مثالين للفظتين مختلفتين، للدَّلالة على أنَّ استعمالهما في سياقات متعددة يمنحهما قيمًا جماليَّة متباينة. أمَّا اللفظة الأولى فهي (الأخدع)، وقد جاءت في قول الصِّمة القُشيريِّ[8]:

تلفَّتُ نحو الحيِّ حتى وجدْتُني

وجِعْتُ منَ الإصْغاءِ ليتًا وأخْدَعا

وقول البحتري:

وإنِّي وإنْ بلَّغْتني شَرَفَ الغِنَى

وأعْتقَتْ من رِقِّ المطامِعِ أخْدَعي

قال : « فإنَّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحُسْن، ثم إنَّك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهْرُ قوِّم من أخْدَعيكَ، فَقَدْ

أضْججتَ هذا الأنامَ من خُرُقِك

فتجد لها من الثِّقل على النَّفس ومن التَّنغيص والتَّكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة»[9].

ودلالة الأخدع في الأبيات شابها الغموض، لا من جهة معناها المعجميِّ فهو معلوم غير مجهول، ومحدد غير متعدد (العرق في العنق)[10]، وإنما من جهة الاستعمال وكيفيَّته، فقد صرف اللفظ في البيت الأول ليدل على شدة تعبه من دوام التفاته وطول إصغائه، لكنَّ الدِّلالة النَّفسيَّة بإيحاءاتها قد تأخذ بعدًا آخر، فتعبه جاء من شدة إمعانه في تذكر أيَّامه الخالية وتحسره على الفائت من أحبابه وديارهم[11]؛ ولهذا ينقلنا اللفظ حسب سياقه في مدارج عدَّة من المعنى، فمن الصُّورة التَّشريحيَّة لجسم الإنسان وأعضائه، إلى صورة كليَّة موحية بتعب الجسد، إلى صورة نفسيَّة مشعرة بحجم الضِّيق النَّفسيِّ الذي يلازم الشاعر بعد افتراقه عن أحبته وحنينه إليهم.

ولا تُعْدَم صحةُ القياس على البيت الثَّاني، فالأخدع يقابل الرَّقبة حقيقة، والرَّقبة تقابل العبوديَّة مجازًا، وعتق الرَّقبة تحرر وانعتاق، ومن ثم فالأخدع قد يعني العبوديَّة أو التَّحرر.

ولو نظرنا في البيت الثالث الذي رآه الجرجانيُّ يقلُّ عن صاحبيه، لوجدنا أنَّ اللفظة جاءت في معرض الاستعارة لا للدِّلالة على المعنى المعجميِّ المجرَّد، وإنما للدِّلالة على أفكار تختزنها، فلفظة (أخدعيك) لا تفهم مجردة عن لفظة الدَّهر التي لا تفهم أيضًا بمدلولها الظاهري من حيث هو زمن تتقلب فيه الحوادث والصُّروف فقط، إنَّ الدهر لازمة من لوازم العربيِّ، تجمعه معه علاقة صراع أبديٍّ، استعان فيها بكل ما أوتي من قوة تحدٍ، لكن

الغلبة كانت دائمًا للدَّهر، ولطالما اتخذ العربيُّ من الجمل وسيلة للتَّخلص من عناء الدَّهر وغلبته، فاتَّخذه مطيَّة يركبها للسَّفر فرارًا من الدَّهر ونوائبه وهمومه، لكنه عانى من الجمل ما عاناه من الدَّهر ذاته، فكلاهما معوجٌّ وكلاهما أخرق، وكلاهما عنيد، وكلاهما متكبر، وكلاهما لا يقوى العربيُّ على اتِّقاء هجمته، ومن ثم يحمل الجمل هذه الصورة الرَّمزيَّة بكل أثقالها وأعبائها[12]، فقد عبَّر عن شدة إيذاء الدَّهر للأنام بشدة إيذاء الجمل لهم، فالدَّهر والجمل عند العربيِّ سيَّان، فهما تارة يسيران معه وتارة أخرى ينقلبان عليه ويفسدان عيشه.

ويلاحظ أنَّ الاستعمالات الثلاثة حملت دلالة غير حقيقيَّة، لكنها تفاوتت في القرب والبعد، والمباشرة والتأويل؛ إذ كانت الصُّورة في البيتين الأوليين قريبة المتناول في الفهم والإدراك، وبعيدة عن الغموض والإبهام، فلم تحتج إلى كبير نظر في تفسيرها وبيانها، لكن صورة الاستعارة وغرابتها في البيت الثالث أكسبت اللفظة غموضًا جعلها تنماز عن غيرها، ودفع بها إلى التأويل.

والمثال الثاني الذي ساقه الجرجاني هو لفظة (شيء)، قال: «ومن أعجب ذلك لفظة «الشَّيء» فإنَّك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع. وإنْ أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ومن مالئ عينيه منْ شيء غيْرِه إذا راحَ نحو الجَمْرَةِ البيضُ كالدُّمى

وقول أبي حية[13]:

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ

تقاضاه شيءٌ لا يملُّ التَّقاضيا

فإنَّك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لو الفَلَكُ الدَّوارُ أبغضْتَ سعْيَهُ

لعوَّقهُ شيءٌ عنِ الدَّورانِ

فإنَّك تراها تقل وتضؤل، بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم»[14].

فلفظة شيء في الأبيات الثلاثة تحمل معنى الغموض، فقامت عند عمر مقام الاستمتاع بالنَّظر إلى متعلقات الغير، وعند النُّميري مقام الحدث الجلل، وعند المتنبي مقام الحائل العائق. ويرجع هذا التَّباين إلى غموض الكلمة في أصلها وعدم حصرها في معنى معجمي واحد يمكن أن يمثِّل دلالة مركزيَّة لها[15]؛ مما أعوزها إلى السِّياق الذي حدد دلالتها تبعًا لعلاقاتها مع سوابقها ولواحقها. وصاحَبَ هذا التحديد تفضيل جماليٌّ تأتَّى من المعنى الذي أفادته اللفظة عند وضعها في السِّياق[16].

إنَّ اللغة الأدبيَّة لغتان: إبلاغيَّة توصيليَّة تستعمل فيها الألفاظ استعمالا إخباريًّا خاليًا من الشَّاعريَّة والفنِّيَّة، فيتخير صاحبها زوايا المعنى المرتبطة بالإبلاغ، والأخرى لغة فيَّاضة بالرموز والإشارات ممتلئة حيويَّة بالخيال[17]، لذلك تجد ذلك التفاوت في استعمال لفظة الأخدع واستعمال لفظة الشَّيء، فالأولى يمكن لها أن تتشكل في قوالب فنيَّة تكون منها صورًا محافظة على أصلها الوضعي، ومجتازة بها، في الوقت نفسه، الأصل إلى عالم الخيال حيث تلتحم الألفاظ معًا متجردة من كل معنى واقعي، وداخلةً في

كل ما له صلة خارجه. بينما نجد أنَّ غموض الكلمة الثانية ملازم لها في أصلها المعجمي، فهي لا يمكن أن تتشكل صورًا فنيَّة، وقد يصحُّ أن نضع بدلا منها فراغًا يملؤه القارئ بما يستنبطه من المعنى السِّياقيِّ.

وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ أكثر الألفاظ غموضًا هي تلك التي يصح أن تدخل في مجازات استبداليَّة (استعارات وكنايات)، أو مجازات إسناديَّة تنقلها من المعاني المباشرة إلى المعاني الحافة بالتأويل والتخييل، وهذه الألفاظ تشغل جزءًا كبيرًا في اللغات الإنسانيَّة.

ولما كانت الألفاظ بسياقاتها دالة على شيء خارج حدود اللفظ المجرد، فإنَّها تعمل على انفتاحه على تأويلات دلاليَّة متعددة يحتملها مجموع العبارة؛ مما يؤكد دعوة البنيويين إلى عدم تثبيت المعنى وعدم مركزيته، قال (رولان بارت Roland Barthes): "إنَّ أحدًا لم يعترض ولن يعترض على أنَّ خطاب الأثر الأدبي يتضمن معنى حرْفيًّا يعلمنا بصدده فقه اللغة، إذا دعت الضرورة، بيد أنَّ المسألة هي أن نعرف ما إذا كان لنا الحق أم لا في أنْ نقرأ داخل خطاب حرفي معاني أُخر تناقضه"[18].

وتعدد المعاني في السِّياق الواحد أمر محتمل إنْ لم يكن مؤكدًا، غير أنَّ احتمال الخطأ في استنباط المعاني أمر مؤكد أيضًا؛ ذلك أنَّ بنية النَّص قد لا تسعف كثيرًا في خلق دلالات جديدة تناقض الدِّلالات الأصيلة، فضلا عن أنَّ الدِّلالة المركزيَّة قد تكون أكثر ملاءمة لسياق العبارة من غيرها من الدِّلالات المستنبطة من بنية النَّص؛ ولذلك ينبغي أنْ يدركَ النَّاقد أنَّ انفتاح النَّص على الدِّلالات التأويليَّة ليس على إطلاقه، فهو مضبوط بانتظام سياقيٍّ تحدده إمكاناته، فمعنى الكلمات مجموعة من الإمكانيات تغذي وتتغذى بإمكانيات أُخر[19]، وتناهي الإمكانيات قد يقضي بتناهي الدلالة، والتناهي لا ينفي التَّعدد بل يؤكده ويثبته، قال (أُلمان Ullmann): " بعد أن يجمع المعجمي عددًا من السِّياقات الممثلة التي ترد فيها كلمة معيَّنة، وحينما يتوقف أي جمع آخر للسِّياقات عن إعطاء أي معلومات جديدة يأتي الجانب العمليُّ إلى نهايته، ويصبح المجال مفتوحًا أمام المنهج التَّحليلي"[20]. فإذا كانت وظيفة السِّياق هنا موطئة للتحليل فإنَّ الأخير لا يمكنه الاستغناء عنها في تحديد محتملات المعنى، بغض النَّظر عن طريقة التحليل والمنهج المتبع، وهذا يعني القول بنهائيَّة المعنى السِّياقيِّ؛ إذ لا بد من مرحلة يضيق فيها المعنى عن الاتِّساع ويصبح أكثر محدوديَّة وثباتًا، وهي المرحلة التي يستنفذ فيها السِّياق كل إمكاناته المعنوية، ويبحث عن إمكانات أُخر قد يتوفر عليها مع تطور الألفاظ وتغيُّر مدلولاتها.

(2)

وثمَّة مسألة أخرى تتعلق بالسِّياق، إضافة إلى الغموض، وهي ما يمكن تسميته تأريخيَّة السِّياق، ويقصد بها: الدِّلالات التي يحتملها السِّياق في مرحلة زمنيَّة محددة، يرصدها المجموع الذِّهني عند إنسان ذلك الزَّمان.

ويقوم هذا الحدُّ على أربعة أركان: الدِّلالة والسِّياق والزَّمن والمجتمع، وهي جميعًا يأخذ بعضها برقاب بعض؛ فالدِّلالة مفتقرة إلى السِّياق في تحديدها، والسِّياق مرتبط بالزَّمن الذي يشيع فيه، والزَّمن هو

المجتمع المشكِّل للظاهرة الدلاليَّة السِّياقيَّة.

ولمَّا كانت المجتمعات متعاقبة فإنَّ السِّياقات متعاقبة أيضًا، والتَّعاقب سمة تأريخيَّة تقوم على نسخ الحاضر للماضي وعلى نسخ المستقبل للحاضر في حتمية وجودية لا مناص منها، فيتناسب وجود السِّياقات وتعددها مع وجود المجتمعات وتعددها، وبقدر ما تنسخ هذه المجتمعات بعضها تنسخ السِّياقات بعضها أيضًا.

وتأريخيَّة السِّياق مطلب نقديٌّ، يقوم فيه النَّاقد بتحديد زمن النَّص لا من أجل استحضار الظروف السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لمنشئه، وإنما من أجل استحضار الإطار الدِّلاليِّ للنَّص ذاته، فاللغة نظام من العلامات كما يرى سوسير، وهي متطورة حسب حركة المجتمع وتطور خبراته، ولذلك يكون تثبيتها عند مرحلة زمنيَّة معيَّنة أدعى إلى تقديم صورة أوضح لدلالة العلامة المجردة ودلالتها الإيحائيَّة.

وقد أشار سوسير في درسه اللغوي إلى منهجين في الدراسة: أحدهما التَّزامني Synchronic، والآخر الزَّمني Diachronic، فالتَّزامني يصف الظَّاهرة اللغويَّة في مرحلة ما، في حين يعمل الزَّمني على فحص تطورها الحادث عليها[21]. ولو نقلنا هذا التَّصور المنهجيَّ من علم اللغة إلى علم الدِّلالة وهو جزء منه، لرأينا أنَّ الدّلالة كعلم اللغة تتطور وإن كان تطورها على غير نظام[22]، ومع تطورها يحدث في العقل اللغويِّ الجمعيِّ تغير في المفاهيم والمدلولات مما ينشأ عنه سياقات جديدة لا عهد للسابق بها، ومن هنا فإنَّ عمل النَّاقد الحديث يقوم على تحليل النَّص القديم بعيدًا عن العقل اللغويِّ لمنشئه، وحتى يكون قريبًا منه عليه أن يتمثل حقيقته في عصره وفيما سبقه من تمثُّلات. قال مصطفى ناصف: «السِّياق يبدأ من الاستعمالات الماضية؛ ولذلك كان فهم قدر كبير من المعنى في القصيدة رهينًا بتنوير المساقات الماضية»[23]، والاستعمالات الماضية هي سيرورة السِّياق ودلالته حتى عصر النَّص.

والنَّاقد الذي يمتلك الكفاية اللغويَّة والفاعليَّة النَّقديَّة تختلف ثقافته عن ثقافة الشَّاعر إن لم تكن أقل منها، فالنَّاقد محدود الثقافة لا يعلم أكثر من حدود تجاربه الدنيويَّة ومعرفته اللغويَّة التي يحصلها من درسه ونظره، بمعنى أنَّه غير قادر على خلق معنى جديد للكلمات إلا إذا أوحى الشِّعر له بذلك، «والسَّبب في ذلك أنَّ الشعر له وسائله القوية التي يفرض بها فرضياته الخاصة، كما أنَّ الشعر يعد مستقلاً تمامًا عن عادات القارئ الذهنيَّة»[24]، فلفظة ما قد تحرك في نفس النَّاقد شيئًا لا يمكنه تفسيره إلا مع طول البحث والتفتيش، ولعل هذا السِّر وراء غموض كثير من الأعمال الأدبيَّة الكبيرة، التي حاول النُّقاد أنْ يختزلوا مضامينها ببعيد المعنى ومستحيله.

وعلى الرَّغم من كون ثقافة الشاعر تفوق ثقافة الناقد لا يستطيع - أي الشاعر- أنْ يخرجَ عن الإطار اللغوي لعصره «فاللغة هي مجموع إلزامات وعادات مشترك بين جميع الكتاب في عصر ما»[25]، وهذا يقضي بأنَّ دلالات النَّص المجردة والإيحائيَّة موجودة في العقل اللغويِّ لعصر النَّص، ومن ثمَّ هي موجودة في عقل المبدع وقريحته، وعلى النَّاقد أنْ يحدد تحليله لها بمجموعة من النُّظم اللغويَّة التي تعمل في لحظة معيَّنة من الزَّمن؛ ذلك أنَّه لا يستطيع أنْ يحدد تقاليد

الأدب لجميع العصور مرة واحدة، كما أنَّه لا يستطيع أن يضع لغة واحدة لجميع الثقافات في التأريخ[26].

وثمة سبب أخير يجعلنا ننحو منحى تأريخيَّة السِّياق وهو أنَّ تأريخيَّة الألفاظ غير منظورة، إذ لا يمكن تحديد أول من نطق بالمعنى الجديد للفظة، ولا زمن التَّغيير الدِّلالي، ولهذا فإنَّ البحث التأريخيَّ يعدُّ نوعًا من الوهم العلميِّ في الميدان اللغويِّ المعجميِّ العربيِّ[27]؛ ولا نتأدى إلى مثل هذه الغاية إلا عن طريق الكتابات الإبداعيَّة التي تمنح اللفظة دلالة سياقيَّة تُخْرجها إلى حدٍّ ما عن الدِّلالة المعجميَّة المجردة، ويمكن تحديد صيرورة هذه الدِّلالة بناء على المنقول الصحيح من نصوص الشِّعْرِ العربيِّ[28].

لفظة (شيخ):

ولفظة (شيخ(من المفردات اللغويَّة التي طرأت عليها تطورات في مدلولاتها، فقد تنقلت من مظاهر الضعف والخوار، إلى مظاهر السِّيادة والرِّياسة، إلى مظاهر التَّأديب والتَّعليم، إلى مظاهر القيمة الدِّينيَّة، إلى تمييز البشر على أساسها بين مؤمن وضعيف الإيمان. وعلى الرغم من تعددها الدلالي، وأهميته في التواصل الإبلاغي والبلاغي، كان دورانها في الاستعمال الشِّعريِّ قليلا جدًّا مقارنة بغيرها من ألفاظ الشِّعْر العربيِّ.

ولعل القيمة الدِّينيَّة المستحدثة لهذه اللفظة تجعلها مجالا خصبًا للدرس النَّصي عامة، والقديم خاصة؛ ذلك أنَّ اكتسابها هذا المدلول جاء متأخرًا عن العصور اللغويَّة الأولى،فأصبح المؤدبون شيوخًا، وأصبح العلماء شيوخًا، فقيل: شيخ التدريس، وشيخ الإسلام، وشيخ الطريقة، واستبدلوا بالإمام والفقيه لفظة الشَّيخ، ثم زيد في تطورها الدِّيني فغدت تطلق على كل من شدا شيئًا من الدِّين أوتمظهر به.

وجعلت هذه التَّطورات دلالة اللفظة إيجابيَّة خالصة، فانمحتْ معظم الدِّلالات القديمة أو قلَّ استعمالها، وطغت الدِّلالة الحديثة وكثر استعمالها، فأخذت القراءات النَّقديَّة للنُّصوص تطبق المفهوم الحديث ظنًّا منها أنَّها تقدم قراءة جديدة، دون أن تتنبه إلى أنَّ القراءة الجديدة تتقرر من عصر النَّص لا من عصر لاحق، إذ إنَّ المعوَّل عليه هو السِّياق آناء انبثاقه. ولهذا يكون النَّاقد الحديث أمام استعمالين للفظة الشَّيخ: أحدهما قديم متجرد عن القيمة الدِّينيَّة وما يستصحبها من تحسين وتقبيح، والآخر جديد متضمن للمفهوم الدِّينيِّ ومؤكد له.

وتجنبًا للخلط يجب التفريق بين تطور المعنى Semantic Development وظلال المعنى Connotation، فالتَّطور يُسْبِغُ على اللفظة دلالة لم تكن تقصد إليها في أصل وضعها، أما ظلال المعنى فهي معان إضافية موجودة جنبًا إلى جنب مع المعنى الأصلي[29]، وتكمن قدرة النَّاقد في الكشف عن تلك الظلال لا في إسقاط التطورات الحادثة على اللفظة، وعلى هذا فالمعنى الدِّيني للفظة الشَّيخ يُعدُّ تطورًا وليس ظلا لها يمكن أنْ نستوحيه من القراءة في النُّصوص القديمة التي لم تقع ضمن حيز التطور.

الدِّلالة المعجميَّة :

أوردت المعاجم العربيَّة القديمة مادة (ش ي خ) التي تنتظمها كلمة شيخ، مشتملة مدلولات عدة، جاءت في لسان العرب على النحو الآتي: « الشَّيخ: الذي استبانت فيه السِّنُّ وظهر عليه الشَّيب، وقيل:

هو شيخ من خمسين إلى آخره، وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره، وقيل: هو من الخمسين إلى الثمانين، والجمع أشياخ، وشِيخان، وشيوخ، وشيَخَة، ومشْيَخة، ومشيِخة، ومشيوخاء، ومشايخ...وشيَّخته: دعوته شيخًا للتبجيل... شيَّخت الرجل: تشييخًا وسمَّعت به تسميعًا ونددت به تنديدًا إذا فضحته. وشيَّخ عليه: شنَّع...»[30].

ومن خلال هذا النَّص يمكن تبين مدلولات كلمة شيخ على النحو الآتي:

1. الشَّيخ هو من امتدت به السِّن بعد العقد الخامس من عمره، فهي تأريخ.
2. والشَّيخ لفظة تطلق على الرجل للتَّبجيل، فهي منقبة.
3. والشَّيخ لفظة تطلق للتَّنديد بالإنسان والتَّشنيع عليه، فهي شتيمة.

وعلى هذا فقد تعددت استعمالات لفظة (الشَّيخ) المعجميَّة بتعدد بنيتها النَّحويَّة بين اسم وفعل، فهي اسم يحمل دلالة الصِّفة الملازمة للإنسان دون غيره من المخلوقات، وهي فعل يصدر أيضًا عن الإنسان للمدح أو الذم، وقد حافظت في اسميتها وفعليتها على دلالتها المركزيَّة (الكِبَر في السِّنِّ)؛ لذلك يصح اتخاذ المدلول الأول مركزًا، والثَّاني والثَّالث هامشين[31] على نحو ما تبينه الخطاطة الآتية:

الشَّيخ (اسم)

(الكِبَر في السِّن)

التَّبجيل (شيَّخ / فِعْل) التَّشنيع (شيَّخ / فِعْل)

والجامع بين المركز والهامش في دلالة الشَّيخ هو قدرة مركزها على احتواء المدلولين الآخرين؛ ذلك أنَّ التَّقدم في السِّنِّ يوجب التَّبجيل أو التَّشنيع تبعًا للمتكلم ونظرته إلى الشَّيخ، فإذا أراد أن يعيبه وينعى عليه رماه بها، وإذا أراد تبجيله وتوقيره دعاه بها، والفيصل بينهما هو السِّياق وتوابعه الصوتيَّة والإيحائيَّة والإشاريَّة، وقدرة السَّامع نفسه على فهم مقصد المتكلم.

وخرجت دلالة اللفظ إلى المجاز عند الزَّمخشري فجعل الشَّيخ بمثابة الأب، قال: « ومن المجاز: ورث من شيخه الكرم، ومن أشياخه: من آبائه»[32]. ولا تعارض بين المجاز والحقيقة فكلاهما يصبَّان في معنى واحد هو الكِبَر، فالأب الذي له عقب يرثونه قد يبلغ من العمر ما يجعله شيخًا، والأب الذي عرك الحياة وحنَّكته تجاريبها يورِّث خصالا قد تكون إيجابيَّة كالكرم، وقد تكون سلبيَّة كالبخل، مما يستوجب المدح أو الذم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الدِّلالة المعجميَّة المجرَّدة لا تسقط على اللفظة مدلولا إيجابيًّا خالصًا يجعلها مميزة به، كما لا يسقط عليها مدلولا سلبيًّا مطلقًا، فهي لا تنتمي، ككثير من ألفاظ العربيَّة، إلى حقل دلالي ثابت يقضي باستعمالها في باب الخير مطلقًا أو باب الشر مطلقًا، وإنما يتوقف المدلول على الاستعمال بتمثلاته السِّياقيَّة ذات الحتميَّة الموجبة للمدلول مقصد النَّص.

ولا تحسم الدِّلالة المعجميَّة أي خلاف قد ينشأ في مستقبل اللفظة، فهي لا توحي بتصور دينيٍّ، أو تعليميٍّ، أو تمييزيٍّ بين قوة الإيمان وضعفه، مما آلت إليه في سيرورتها؛ لذلك قد نجانب الصواب

أحيانًا في تحديد دلالة اللفظة في بعض النَّصوص إذا اعتمدنا على الاختيار المعجميِّ التَّطوريِّ وحده دون السِّياق التَّزامني[33].

على أنَّ هذا لا يعني أنَّ العلاقة بين الدِّلالة المُعجميَّة وما آلت إليه من معنى علاقة اعتباطيَّة، فكل المعاني التي حملتها دالة على الكِبَر بمعانيه المختلفة، سواء باتِّزان النَّفس وعلوها وترفعها عن الرَّذائل فهذا كِبَرٌ يحمله المعنى الدِّيني والإيماني، وسواء بوقار النَّفس وعلوها جرَّاء نيلها الحكمة والعلم فهذا كِبَرٌ يحمله المعنى التَّعليمي، فمهما اختلفت مدلولات اللفظة في تطورها يمكن إرجاعها إلى مركز دلاليٍّ مُحدَّد، وهو (الكِبَر).

التَّمثُّلات السِّياقيَّة :

أولاً. الشعر الجاهلي:

تعاورت لفظة الشَّيخ في الاستعمال الجاهليِّ مجموعة من الدِّلالات، هي: الأبوة: بمعناها الاجتماعيِّ، والسِّيادة والرِّياسة: بمعناها القَبَليِّ، والكِبَر في السِّنِّ: بمعناه الزَّمنيِّ.

- **الأبوَّة:**

قال امرؤ القيس[34]:

تاللّه لا يَذْهَبُ شَيْخي بَاطِلا

يا خيرَ شيخٍ حسبًا ونائلا

جاءت لفظة شيخ في هذا البيت بمعنى الأب، فالشَّيخ هو أبوه المقتول المُحمَّل بثأره، وهو خير أب حسبًا ونائلا. وأكَّد هذا المعنى عبيد بن الأبرص في نعيه على امرئ القيس كثرة حديثه عن ثأر أبيه دون الأخذ به حقيقة، فلا يعدو كلامه وتمنِّيه أن يكون ضربًا من الأحلام التي لن تتحقق أبدًا، قال[35]:

يا ذا المُخَوِّفُنا بمقتَلِ شيْخِهِ

حُجْرٍ تمنِّي صَاحِب الأَحْلامِ

وزادها تأكيدًا ودفعًا للشَّك تصريحه في بيت آخر بلفظ الأب، قال[36]:

يا ذا المُخوِّفُنا بقتْلِ أبيهِ إذلالا وحَيْنَا

وقال قيس بن الخطيم[37]:

ثأَرْتُ عديًّا والخطيمَ فلمْ أضِعْ

وصيَّة أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها

والمعنى الأبوي في هذه الأبيات تلبس لبوس الشَّيخ، فالأب شيخ والشَّيخ أب، وهو انزياح بالدِّلالة استدعاه السِّياق، فلا يمكن أن تدل لفظة الشَّيخ، مجردة، على معنى الأب بحيث تصبح مرادفة لها، بيد أنَّ هذا الاستعمال منح المعنى الأبوي معنى على معنى، فالأب قد يكون شيخًا وقد يكون كهْلا وقد يكون شابًّا، ولمَّا كان دافع الشَّاعر أنْ يسقط المهابة والجلال على الأب اختار له لفظة الشَّيخ، فجمع عند امرئ القيس بين الأبوة وما يستصحبها من التقدير والإجلال.

وهبط المعنى في بيت عبيد فأسقط المهابة والسمو عن لفظ الشَّيخ بذكر اسمه (شيخه حُجْر(على البدليَّة، فإخراج لفظة الشَّيخ يبقي المعنى تامًّا بوجود لفظة حجر، انظر التوصيف الآتي:

- شيخي: إضافة إلى ياء المتكلم، وهي إضافة تقدير وافتخار.

- شيخه: إضافة إلى ضمير الغائب (هو)، وهي إضافة تنقص وازدراء.

ـ شيخه حجر: إضافة إلى ضمير الغائب، يلحقها بدليَّة[38]، وهي زيادة في الإهمال والازدراء، فحذْفُ المبدل منه وبقاء البدل (بمقتل حجر) يترك الاسم مجردًا من كل قيمة تقديريَّة، ويؤكد هذا المعنى ويقويه أنَّ عبيدًا في بيته الثاني أسقط لفظ الشَّيخ مطلقاً واستعاض عنه بلفظ (أبيه(فلم يعد لهذه اللفظة من قوة وسمو ما لها لفظة الشَّيخ.

وجاءت في بيت قيس دالة على عظم الحمْل الذي تحمله قيس من أخذه بالثأر، فكان حريصًا على أن ينفذ وصيَّة الأشياخ (الآباء(ولا يضيعها، والحرص على الشَّيء دافعه القيمة المثلى التي يصوِّرها في ذهن صاحبه، ومن هنا كان ذِكْرُ الأشياخ ذِكْرًا إيجابيًّا.

واستعمل قيس لفظة أشياخ مع أنَّ والده هو المطلوب ثأره؛ ذلك أنَّ الثأر في العرف القبليِّ مسألة جمعيَّة تخص مجموع القبيلة، وإنْ كان من يقوم به فرد واحد، فعدم الأخْذ به يعيب العائلة والقبيلة برمَّتها، والأخذ به يرفع قدرَهما ويسترد هيبتهما، ولهذا جاء ترتيب الأسماء من الأقدم فابتدأ بجده وأتبعه والده؛ إشعارًا برضى من مات ومن عاش عن هذا الفعل.

- **السِّيادة والرِّياسة:**

قال الأعشى[39]:

وقد كان شيْخانا إذا مَا تَلاقَيا

عَدوينِ شتَّى يرميانِ الفَرائِصا

وقال أيضاً[40]:

جزى الله فيما بيننا شيخ مِسْمَعٍ

جزاء المُسيءِ حيثُ أمْسى وأشْرقا

وقال المهلهل[41]:

يا حارِ لا تجْهَلْ على أشْياخِنا

إنَّا ذوو السَّورات والأحْلام

وتمثلت لفظة الشَّيخ في الأبيات صيغ الاسم الثلاثة: الإفراد والتَّثنية والجمع، وهي في جميعها دالة على الجماعة ممثلة بسيدهم، ويؤيد هذا أنَّ الإضافة كانت إلى ضمير المتكلمين، فتلاقي السَّيدين في الحرب يفضي إلى تلاقي القبيلين، لكنه ذكر الشَّيخين لإسقاط التبجيل عليهما فهما من يعلنان الحرب ويطفئانها. ولم يكتف بذلك بل وصف الشَّيخين بالبسالة والشجاعة في القتال، فلا يرميان إلا الفرائصا دلالة على استقبالهما في المعركة دون إدبارهما.

وجاءت في البيت الثاني مضافة إلى قبيل عربي ينتمي إليه جمهرة كبيرة من الناس (شيخ مِسْمَع)، أي مضافة إلى الجماعة، وهجاء سيد العشيرة هجاء لعموم العشيرة، كما أنَّ مقابله في المدح يوجب مدح العشيرة كلها.

وجاء النهي في بيت المهلهل عن الجهل والسفاهة على السادة الأشياخ مرتبطًا بتحول الضمير من الجمع الغائب (هم) إلى المتكلم (نحن)، فلو أراد مديح السادة فقط لأرجع الضمير إليهم (إنهم) لكنه شمل السادة والقوم، وجعل السبب في شدة البأس والصبر هو مساس الأشياخ سادتهم.

- **الكِبَرُ في السِّنِّ:**

قال النَّابغة الذُّبياني[42]:

إذا ما غَزَوا في الجيشِ حلَّقَ فوقهمْ عَصَائِبُ

طيْرٍ تهْتدي بعَصائبِ

يُصاحبْنَهُم حتَّى يُغِرْنَ مَغَارَهُم منَ الضّارياتِ بالدِّماءِ الدَّوارِبِ

تَراهُنَّ خلْفَ القَومِ خُزْرًا عُيونُها جُلوسَ الشُّيوخِ في ثيابِ المَرانِبِ

وهذا التَّمثيل من المواضع النادرة للفظة شيخ في الشِّعر الجاهلي؛ فقد جاءت في صورة فنيَّة بعد أن كانت جامدة في الاستعمال، وفرادة هذه الصورة تأتي من جهتين: الأولى تشبيه الحيوان بما يليق بالإنسان، فلفظة الشَّيخ إنسيَّة تختص بالبشر دون سائر الخلق، فالمشبه هو الحيوان(الطيور الجارحة)، والمشبه به هيئة جلوس الإنسان، وهي من متعلقاته.

والثانية هي الصورة المنبثقة عن هذا التشبيه، فقد شبه الطيور بصورة سلبية عند الإنسان لكنها إيجابيَّة عند الحيوان تتفق وطبيعتهم الخَلْقيَّة:

- النُّسور تميل أعينها حتى تُرى وكأنها تنظر بمؤخرة أعينها.

- والنُّسور تتميز بضخامتها وسكونها.

- والنُّسور يتلون ريشها بالسَّواد.

وهذه الصورة لا يتفق شبيهها عند الإنسان إلا في حالة عارضة، ومثَّل عليها النابغة بصورة الشيوخ لحظة تدثرهم بالثياب اتقاء البرد:

- الشيوخ ألزم للأكسية من الشَّباب، وأقلُّ صبرًا على البرد. وهو بهذا لا يقصد من ثياب المرانب المشابهة اللونيَّة حسب، وإنما يقصد حال الشيوخ وقت البرد واحتياجهم إلى هذه الثياب، ويؤكد ذلك رواية ابن السكيت للبيت[43]:

تراهنَّ خلف القوم زورًا عيونُها جلوس الشُّيوخ في مُسوكِ أرانب

والمسوك هي الجلود، والشيوخ لا يرتدونها إلا عند اشتداد البرد الذي لا يصبرون عليه، فدل ذلك على أنَّ الثياب المَرنُبانيَّة لا يقصد منها اللون حسب بل قيمتها في اتقاء البرد.

- والشُّيوخ يتسمون في جلوسهم بالوقار: وسمة الجلوس هي موضع التشبيه في البيت؛ إذ شبه الطيور الجارحة عند لحاقهم بالجيش بجلوس الشيوخ عندما يكونون متدثرين بالثياب الثقيلة، جامعين بعضهم إلى بعض، ساكنين كأتم ما يكون السكون.

- والشيوخ يتسمون بحدَّة نظرهم ودقة رأيهم مع طول تجاربهم: وهذا يتعلق بالجلوس أيضًا من جهة قدرة الشَّيخ في مجلسه على إعطاء الرأي الرشيد والنُّصح السديد، ويقابله عند النُّسور حدة نظرهم ودقة افتراسهم.

وجاءت على صورة في منتهى السلبية عند لبيد بن ربيعة، قال[44]:

إنَّك شيْخٌ خائنٌ مُنافِقٌ

بالمُخْزياتِ ظاهِرٌ مُطابِقٌ

وظهرت مقترنة بوصف الكبر عند دريد بن الصمة، قال[45]:

وتَزْعُمُ أنَّني شيْخٌ كبيرٌ وهَلْ خبَّرْتُها أنِّي ابنُ أمْسِ؟

وعند الفِنْد الزِّمَّاني[46]:

أيا طَعْنَةَ ما شَيْخٍ كَبيرٍ يَفَنٍ بَالِ

تفتَّيْتُ بهـا إذ كَرِهَ الشِّكَّةَ أمْثَالي

وعند مُجمِّع بن هلال، قال[47]:

فإنْ أُمْسِ ما شيخًا كبيرًا فطالَ ما عَمِرْتُ ولكِنْ لا أرى العُمْرَ يَنْفَعُ

وهي في هذه المواضع تمنح دلالتها بعدًا سلبيًّا، فهي في بيت لبيد لا تقف عند الإخبار بكبر السن، وإنما تزيد في الوصف فتتبعه الخيانة والنفاق، وهذا الوصف التقييدي ميَّز الشَّيخ وذمَّه في الوقت نفسه، فشيخ نكرة ميزت بخائن ومنافق وهما لفظان للذم؛ مما يعني أن الكبير في السن قد يبلغ هذا السوء من الوصف.

وهي عند دريد سبب الهجران والضعف، فالمرأة ترفض وصاله لكبر سنِّه وضعف حاله، وهذا البيت يقوم على النفي والإثبات دون استعمال أدواتهما، فالنفي جاء من استعمال الفعل المضارع تزعم الذي يعني القول حقًّا كان أو باطلا[48]، فهو محمول من جهة المتكلم إلى الغائب على وصف منقول الحديث بالكذب والتَّخرص: وتزعم أنَّني شيخ كبير، ويفهم من هذا الشطر نفي هذا الوصف (شيخ كبير(باستعمال فعل أقرب إلى النفي منه إلى الإثبات لإنكار ما جاءت به.

ويأتي الشطر الثاني ليثبت ما أنكرته من جهة المتكلم صاحب الوصف، لكن بصورة إنكارية مستعملا لذلك أداة الاستفهام (هل) في سياق إنكاري لا تصديقي، والفعل المضارع والاستفهام الإنكاري استعملا لتوبيخ المحبوبة على حجتها في الهجران، وعلى هذا حملت لفظة الشَّيخ قيمتين: إحداهما سلبية من جهة المحبوبة، والأخرى إيجابية من جهة المحب.

وهي عند الفِنْد مناط العجب والانبهار، فالطعنة صدرت عن شيخ كبير في السِّنِّ، خائر القوى، فجعلته يستحيل فتى شابًّا، فانقلبت الحال من الضعف إلى القوة آنيًّا، لكن صورة الضعف ما زالت قائمة، فهي أصل والتفتي طارئ عليها، ويقوي هذا النظر تلك الصفات المتتابعة التي أفرغ لها البيت الأول للدلالة على الضعف الشديد اللاحق بالشَّيخ.

ويدرك مُجمِّع بن هلال أنَّ كِبَر السِّن والطعن فيه لا يجدي ولا ينفع، فهو مرحلة من العمر يتصف فيها الإنسان بالضعف والهوان فلا فائدة منه ترجى، وهو بيان واضح لحقيقة الشَّيخ عندما يبلغ من الكبر عتيًّا، وما يجره ذلك إليه من مساوئ تجعله غير قادر على القيام بشيء سوى التفكر بحتفه وانتظار ساعته.

والوصول إلى هذا المعنى لا يتم بذكر (الشَّيخ) مجردًا عن الصفة (كبيرًا)، لذلك كان التعبير دقيقًا في ملازمته الصفة بالموصوف[49]. وهذا ما لا نراه في تعبير دريد (شيخ كبير)، فلم تكن الحال التي عليها دريد من الضعف والانكسار اللذين نراهما عند مجمع، آية ذلك أنَّ الروح القانط يسيطر على شطري بيت مجمِّع، بخلاف الروح المتقد الذي نراه في بيت دريد وما يكتنفه من إصرار على نفي ما يحول بينه وبين طلبته.

ولم يمنع اطراد هذا الاستعمال الدوني لهذه الكلمة من ورودها في بعض الاستعمالات على نحو إيجابي، قال الكَلْحَبَةُ العُرَنيُّ[50]:

هي الفَرَسُ التي كرَّتْ عليْهِمْ عليها الشَّيخ كالأسَدِ الكَليمُ

والتشبيه في البيت يحمل صورتين: إحداهما

تنقلها الرواية وتفرضها القافية المضمومة للقصيدة، والثانية مفترضة على اعتبار البيت الثاني وهو موضع الشَّيخ قد دخله الإقواء فكسرت القافية بدل ضمها، وتوصيف الصورتين كما يأتي:

ـ عليها الشَّيخ كالأسدِ الكليمُ. رواية القافية مضمومة

ـ عليها الشَّيخ كالأسد الكليمِ. مفترضة (إقواء)

والذي يُظهر التباين هو تبادل النعت (الكليم) بين الأسد والشَّيخ، ففي الصورة الأولى شبه الشَّيخ الكليم بالأسد، فجاءت دلالة الشَّيخ إيجابيَّة تامَّة، دالة على الشَّجاعة والقوة، فالفارس يجمع ضعفين: الشَّيخوخة، والجرح، لكنه مع ذلك كالأسد في مساجلته ومقارعته.

وفي الصورة الثانية شبه الفارس الشَّيخ بالأسد الكليم، فالفارس قوة والشَّيخ ضعف، والأسد قوة والجرح ضعف، فلا يؤثر الشَّيخ في بسالة الفارس، كما لا يؤثر الجرح في شجاعة الأسد.

وقال الجُمَيْح[51]:

يأبَى الذَّكاءُ ويأبَى أنَّ شَيْخَكُمُ

لنْ يُعْطِيَ الآنَ عنْ ضَرْبٍ وتأديبِ

وهي في هذا البيت تحمل معنى إيجابيًّا تامًّا، فتقدمه في السن أورثه حنكة وبُعْدَ نظر يحولان دون أنْ يعطي المقادة عن إكراه وإجبار، وهذا استعمال سليم للدلالة لأنَّ القانون الطبيعي البشري يقضي بنبوغ الإنسان وإبداعه كلما ازدادت تجاربه الدنيوية.

وقال بِشْرُ بنُ عمرو بنُ مَرْثَد[52]:

قلْ لابن كُلثومَ السَّاعي بِذمَّتِه أبْشِرْ بحرْبٍ تُغِصُّ الشَّيخ بالرِّيقِ

ولا يخرج المعنى الإيجابيُّ هنا عن سابقه فالشَّيخ المجرِّب البصير بالحرب[53]لا يستطيع الوقوف في الحرب المستعرة لشدتها وقهرها للخصوم، وإنْ كان هذا يدفع بالسلب فهو ليس من جهة الشَّيخ وإنما من جهة الحرب وشدتها، بمعنى أنه لا يستطيع الوقوف في وجهها الشاب والكهل والشَّيخ جميعًا، واختار الشَّيخ لسابق تجاربه وماضي عزماته فجمع بذلك كل من قد يكون له سهم فيها.

ثانيًا: القرآن الكريم :

ولا يكون الرَّصد للاستعمالات الماضيَّة للفظة الشَّيخ مستوفى إذا توقفنا عند الشِّعر الجاهلي فالقرآن الكريم يمثل في اختياراته الاستعمال العالي للألفاظ[54]، فضلا عن كونه سلطة يمكنه إماتة بعض الألفاظ والدلالات وإحياء أُخر؛ مما يوجب درس لفظة الشَّيخ في استعماله.

وردت لفظة (شيخ) في القرآن الكريم في أربعة مواضع، هي :

ـ «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ» (القصص:23)

ـ «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيب» (هود:72)

ـ «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف:78)

. «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (غافر:67)

ويمكن تقسيم هذه الآيات مجموعتين: الأولى تضمُّ آية القصص وآية يوسف. والثانية تضمُّ آية هود وآية غافر. ومرجع هذا التَّقسيم نحويٌّ تركيبيٌّ، فلفظة الشَّيخ في آيتي المجموعة الأولى جاءت متبوعةً بوصف الكِبَر(شيخ كبير/ شيخًا كبيرًا). في حين جاءت في آيتي المجموعة الثانية خلوًا من الوصف (شيخًا / شيوخًا)؛ وهذا يوحي أنَّ العبارة المزيدة في اللفظ مباينة للعبارة المكتفية بذاتها، مع ضرورة التنبه إلى كمال المعنى واتِّساقه في العبارتين، كما سيأتي بيانه.

ومن جهة أخرى، يتبين من قراءة الآيات الكريمة أنَّ لفظة الشَّيخ تشكِّل في الآيات مرتكزًا دلاليًّا أساسيًّا وثانويًّا في الوقت نفسه؛ ففي آية القصص كانت سببًا في عدم القدرة على السقيا، فهي مرتكز أساس. وهي بيان مُكمِّل لسبب العجز عن الحمل في آية هود، فجاءت مرتكزًا ثانويًّا. وهي سبب أساس في ضرورة العفو والرحمة في آية يوسف، فجاءت مرتكزًا أساسيًّا. وهي في آية غافر بيان عام لمنتهى الإنسان، فجاءت مرتكزًا أساسيًّا.

وتحمل لفظة الشَّيخ في آيتي المجموعة الأولى المعنى المعجميَّ ذاته بإحالاته إلى الكبَر وما يستتبعه من الضَّعْف والوهن، لكنَّها تتباين في سياق عبارتها الذي أعطاها ظلالا أُخر تؤكد المعنى وتقويه، ففي قوله تعالى: «قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ» نرى جملة الحال الواقعة فيها لفظة الشَّيخ سببًا في حدوث الجملة الفعليَّة المنفيَّة؛ إذ إنَّ تعذر السُّقيا للمرأتين حاصلٌ بسبب عدم قدرتهما على المزاحمة وسط الجماعات، فلا حيلة لهما سوى الانتظار، قال الزَّمخشري: « فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله، قلت: سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب في ذلك أنَّا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرِّجال ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السَّقي إلى أنْ يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ قد أضعفه الكِبَر فلا يصلح للقيام به...»[55].

وتؤكد الجملة الفعليَّة أمرين: أحدهما عزم المرأتين على السُّقيا، والآخر عدم قدرتهما على ذلك حتى تجدا سعة للقيام به. ثم تأتي الجملة الاسميَّة الحاليَّة لتبين أنَّ السُّقيا أمر طارئ على المرأتين لا تجيدانه، وأنَّ كبر الأب منعه من القيام بأداء واجبه، فتكشف الجملة الحاليَّة حقيقة المقام في العبارة وعظمه، مما عكس الاستعمال القرآني للفظة الخَطْب، في قوله عليه السلام عند سؤالهما(ما خطبكما ؟)

وهو تعبيرٌ يستعمل عند المصاب أو وقوع شيء منكر تأباه النُّفوس[56]، لكن عجب موسى عليه السلام تبدَّد مع إجابة المرأتين التي جاءت متدرِّجة حسب المقام، فقد بيَّنتا أولا أنهما لا تستطيعان السُّقيا حتى ينتهي الرِّعاء، ثم بينتا ثانيًا أنَّ وجودهما ما كان ليكون لولا عجز والدهما عنه، فكانت الإجابة على هذا الترتيب أبلغ في استمالة موسى عليه السلام ليرفق بهما ويسقي لهما.

ويلفت النَّظر أنَّ جملة الحال في الإجابة لم تأت مقدَّمة على الجملة الفعليَّة رغم أنَّها المرتكز الدِّلالي الذي تتبني عليه الآية، بل جاءت النتيجة مقدمة على السبب لبيان خطورة الحدث الواقع، وهذا يوضح كيف ساغ لنبي الله شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه هذا العمل المنوط به، فهم في أمر جلل وضرورة فاشية، قال الزمخشري: « فإنْ قلت: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أنْ يرضى لابنتيه بسقي الماشية. قلت الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدِّين لا يأباه. وأمَّا المروءة فالنَّاس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضرورة»[57]. وتخريج الزمخشري لذلك اجتماعي حضاريٌّ لا لغويٌّ؛ إذ يفترض وجود جماعة من النَّاس يرون خروج النِّساء للعمل والرجل قابع في بيته عيبًا، من غير أنْ يطَّلعوا على حال الرَّجل والدَّافع وراء فعله.

وأيًّا كان الأمر في اختلاف طِباعِ البشر وصحته، فإنَّ سياق الآية يرفض هذا التفسير إذ يبدو أنَّ المجتمع المَدْيَنِيَّ، نسبة إلى مدين، آنذاك يرفض هذا العمل للنِّساء؛ بدليل عدم وجود نساء أخريات يسقين غيرهما، ولو كان ذلك منتشرًا بين النساء لربِّينَ عليه حتى يقْدرنَ على القيام به، ولمَا عجب نبي الله موسى عليه السلام من رؤيتهما عند المورد؛ ولذا نرى أنَّ الحالة كانت حالة ضرورة ليس غير.

ومن جهة أخرى لو توقفت الآية عند لفظة شيخ لصحَّ الاعتراض، ذلك أنَّ الشَّيخ بمكنته العمل والحركة والنَّشاط، فلماذا هذا الشَّيخ لا يعمل ولا يجتهد في تحصيل معاشه ويترك الأمر لابنتيه؟ غير أنَّ إضافة الصفة منحت اللفظة معنى سلبيًا مضاعفًا فهو شيخ كبير لا يقوى على الحركة والعمل وليس عنده من رجل يقوم على مساعدته فاستعان بابنتيه ضرورة.

وعلى هذا فإنَّ لفظة الشَّيخ والصفة (كبير) أثَّرتا في العلاقات بين الألفاظ في نظم الجمل من جهة، وفي الاختيار اللفظيِّ من جهة أخرى، فقدمت الجملة الفعليَّة وهي النَّتيجة على الجملة الحالية وهي السبب، والترتيب المنطقي يفترض ذكر السبب المفضي إلى النتيجة أولا ثم ذكر ما ترتب عليه ثانيًا، وهذا واقع حتى يتوافق مع مضمون السؤال.

وأما الاختيار اللفظي فجاء موافقًا لمقام الحدث، فاستعمل في السؤال لفظة (خطبكما(وهي دالة على أمر جلل، ثم استعمل الفعل المضارع المنفي (لا نسقي) وهو دال على امتناع السقيا في اللحظة الراهنة إلى أنْ يزول المنع؛ وذلك متعلق بالمستقبل الذي يحدده الفعل المضارع المنصوب بالمضمر بعد حتى، فيكون حال المرأتين طويلا في انتظارهما السقيا. ثم جاء بلفظ (الرعاء) بصيغة الجمع الدالة على الكثرة التي لا يمكن تجاوزها.

ولعل الآية الكريمة الثانية في المجموعة تقوي هذا النظر، قال تعالى: «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» ويلاحظ أنَّ لفظة الشَّيخ جاءت تابعًا (صفة) لكلمة الأب، ومعلوم أنَّ الأب في غالب الأحوال متقدِّم في السِّن، وفي حال يعقوب عليه السلام واقع مثبت، وظاهر على الحقيقة. فهل هذه الصِّفة فضلة؟ الإجابة لا، ذلك

أنَّ الشَّيخ جاءت لتخصيص حال الأب فهو شيخ، ثم جاءت لفظة (كبيرًا) صفة لتخصص لفظة الشَّيخ، فتم بذلك الوصف الحقيقي للأب، فالصفة لا يقصد منها وصف الأب بأنه شيخ، وإنما تقصد أنه (شيخ كبير)، ولبيان ذلك ننظر في الاحتمالات الآتية لبنية العبارة، وأثر الصفة في تباين دلالاتها:

- إنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا: أي أنَّ أباه رجل كبير السن لا يملك القوة على الصبر والتحمل، دلالة سلبية.

- إنَّ له أبًا شيخًا: أي أنَّ أباه رجل كبير السن، لكنه يملك قوة تدفع عنه العجز، دلالة إيجابية لغياب السلبية.

- إنَّ له أبًا كبيرًا: تحتمل معاني عدة يتضمنها مفهوم الكبر، فقد يكون كبير السن، كبير القدر، كبير العلم، كبير القوة... دلالة إيجابية على التغليب.

- إنَّ له أبًا: لفظ مجرد لا يعطي معنى سوى الإخبار بما هو معلوم. ناقص دلالة.

ويلاحظ أنَّ المقصود بالوصف (الموصوف) هو الأب فهو ثابت في الاحتمالات جميعًا، لكن كل احتمال يختلف في دلالته عن الآخر، ولا يتفق مع نسق الآية في مجموع عبارتها سوى الاحتمال الأول، لدلالته على عجز يعقوب عليه السلام، كما تصوره أولاده، عن احتمال فقْدِ ولد ثان له وهو على هذه الحال من الضعف والوهن. ويؤيد هذا قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: «فخذ أحدنا مكانه» وهذه العبارة ترجعنا مرة ثانية إلى البحث في السبب والنتيجة كما تقدم في آية القصص.

وأول ما نلحظه هنا هو اختلاف الترتيب فقد ذكر السبب أولا ثم ذكرت النتيجة غير المتحققة[58]، فقد بين أخوة يوسف عليه السلام أنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا وهو سبب لأن يأخذ أحدهم مكانه، ولما كان السبب عظيمًا قدم على النتيجة وفق الترتيب المنطقي؛ إذ سعوا إلى بيان حال أبيهم يعقوب عليه السلام وما اعتوره من ضعف وفتور ليكون ذلك شفيعًا عنده.

ولعل هذا يقلل من صحة التفسير الذي نقله الزمخشري لقوله تعالى: «شيخًا كبيرًا»، قال: «استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن أو كبير القدر». فعبارة كبير القدر المفسرة للشيخ الكبير لا يحتملها سياق العبارة الكلي، ذلك أن الكبر في القدر أو المكانة يلحقه العيب إذا ثبت الأمر المعيب على جميع مقترناته، فلو استبدل أحدهم بأخيه سوف تثبت عليه ومن ثم يلحق ذلك بأبيه، فلا ينهض ذلك استعطافًا للصفح عنه.

وبالجملة، فإنَّ لفظة الشَّيخ في الآيتين محمولة على دلالة وصفية يوصف بها الإنسان مع مرور السنين عليه، وما يلحقه فيها من حال الضعف والفتور، فـ (شيخ كبير) تدلان على حال واحدة؛ فيكون استعمالهما معًا مخالفًا لاستعمالهما منفردتين.

(2)

ويختلف الأمر بالنَّظر في آيتي المجموعة الثانية، «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» «ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا» ومظهر هذا الاختلاف يتجلى عن خلو لفظة الشَّيخ من الوصف التابع، فاكتفت الآيتان بذكرها مجردة لتعطي معنى مجردًا هو الكِبَر دون الإيحاء بالضعف والوهن،

فالرجل قد يصبح شيخًا ويبقى ممتلكًا للقدرات العقلية والجسدية.

أما الآية الأولى «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ»، فقد جاءت في معرض إثبات معجزة إلهية وهي حمل سارة بإسحاق عليه السلام بعد كبرها وهرمها، إذ بلغت سنًّا يكون فيها الحمل أمرًا معجزًا خارقًا للعادة التي درج الناس عليها.

وذكرت سارة سببين لتعجبها: الأول متعلق بها فهي عجوز مسنة، والثاني متعلق بإبراهيم عليه السلام وهو شيخ، وجاء تقديم حال الزوجة على حال الزوج للدلالة على أن العلة أو السبب الرئيس من عدم الإنجاب منوط بالزوجة، فالمرأة عند وصولها إلى مرحلة العجز أو الشَّيخوخة يلاحقها اللفظ (العجوز) فيحمل دلالة سلبية تتمثل بعدم القدرة على القيام بما كانت تفعله في ميعة الشباب، ومن ثم اقتضى الأمر في الإعجاز أن تُصْلَحَ المرأة لتكون قادرة على الحمل وما يستتبعه من مستلزمات القوة والقدرة عليه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ التَّرتيب بذكر الأسباب جاء بتقديم السبب الرئيس ثم أتبعه سببًا ثانويًّا، فكانت لفظة العجوز= الشَّيخ الواصفة للمرأة هي المرتكز الدلالي الأساس، في حين كانت لفظة الشَّيخ = الرجل مرتكزاً ثانوياً مكمِّلا لحقيقة المعنى غير مشارك في تحقيق السبب مشاركة مباشرة، إذ لو كان الأمر كذلك لأتبعت كلمة الشَّيخ بصفة الكبر (شيخًا كبيرًا) لتدل على أن الرجل مشارك بعدم القدرة على الإنجاب حسب سياق الآية ومضمونها.

وقد جاء في قصة زكريا عليه السلام في موضعين «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»[59]. «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا»[60]، فالكبر هنا لا يقابل الشَّيخ هناك، فهو في آية زكريا عليه السلام يزدوج مع العقر في عدم الإنجاب، ودلالته المعجمية تحرر ذلك، فهي تعني الطعن في السن بمعنى مجاوزة سن الشَّيخ وتعديه[61]؛ فضلا عن أن الدلالة السِّياقية ممثلة بالعجب على لسان زكريا عليه السلام تؤيد ذلك؛ ولذلك راوح الاستعمال القرآني في التقديم والتأخير، فتارة قدم الرجل وتارة قدم المرأة فكلاهما سبب، فيقع الإعجاز على الاثنين. وأما في آية إبراهيم فقد بقيت على سمت واحد لم يتغير في التقديم والتأخير فقدم المرأة دون الرجل إشارة إلى عجزها هي عن الإنجاب، وفي الذاريات «فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»[62].

ومما يزيد الأمر وضوحًا أنَّ زكريا عليه السلام هو المعني بالخطاب والتعجب، وأن زوج إبراهيم عليه السلام هي من عنيت بالخطاب والتعجب، فلا نرى في الآيات أي عجب من سيدنا إبراهيم عليه السلام وكأنه كان يعلم أن العجز عن الإنجاب مكمنه زوجه لا هو، ولا عبرة بما يقوله المفسرون من أنه كان في سنِّ العشرين بعد المئة حين رزق بولده، فالزمن الماضي[63] كانت فيه الأعمار مغايرة لما نشهده اليوم منها[64].

ويتضح مما سبق أن لفظة الشَّيخ إذا جاءت منفردة غير موصوفة بالكبر فهي تحمل دلالة إيجابيَّة، فاحتفظت بمعنى من معانيها الوضعيَّة في أصلها.

وأما الآية الأخيرة «ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا» فجاءت جمعًا للدلالة على حال البشر جميعًا الذي سينتهون إليه مع تراخي الزمان وانقضائه، فحملت هي الأخرى دلالة إيجابية وسلبية دون ترجيح إحداهما؛ ليكون الحكم فرديًّا على صاحب الحالة، فقد يكون مبجلا وقد يكون غير ذلك، وعدم ذكر السلب دليل على تغليب الإيجاب.

ويمكن تلخيص أحوال لفظة الشَّيخ في الاستعمال القرآني بالعبارات الآتية:

1. تحمل اللفظة قيمتين إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، وقد ظهرت بالتساوي اثنتين اثنتين في الآيات الأربع.
2. وجاءت لفظة الشَّيخ موصوفة ومجردة من الوصف فاختلفت دلالتها.
3. وجاءت لفظة الشَّيخ في الآيات الثلاثة توابع مفردة وجملة، ما عدا الآية الأخيرة فقد جاءت خبرًا للفعل الناقص، وإذا سرنا مع المعنى والكوفيين فهي حال تابع. والتوابع ليست ركنًا من أركان الجملة بدليل إمكان الاستغناء عنها، لكن النظر السابق يؤكد أن دلالة العبارة مبنية عليها فلا يمكن إهمالها أو إغفالها.
4. ولا وجود لروح ديني مرتبط بدلالة اللفظة في جميع الآيات.

وإذا كان الاستعمال الجاهلي قد أسفر عن ثلاث دلالات: الأبوة، والسِّيادة، والكِبَر في السِّن، فإنَّها لم تتفق مع الاستعمال القرآني سوى الأخيرة، فلم يُستعمل لفظ الشَّيخ بمعنى الأبوة في القرآن؛ وتأويل ذلك أنَّ لفظة الشَّيخ تتضمن معاني سلبية وأخرى إيجابية، فنزَّه الله عز وجل الأب لمكانه عن السلب، وجعل الشَّيخ وصفًا له دالا على ضعفه وضرورة الرِّفق به.

ولم يستعمل لفظ السيد مقابلا دلاليًّا للشيخ في القرآن، ولعل النزوع القَبَليّ لهذا اللفظ وما يتخلله من عصبيات جاهلية، وما قامت عليه دعوة الإسلام منْ لَمِّ شمل الشتيت العربي وتوحيد الأمة، جعله يستعمل ألفاظًا أُخر، مثل: خليفة، أولي الأمر، الحاكم، وهي ألفاظ دالة على حكم مجموع الأمة، بخلاف ما تدل عليه لفظة الشَّيخ من حكم قبيلة أو عشيرة.

وإذا صح هذا النظر، يكون النَّص القرآني قد حدد دلالة الشَّيخ بالكِبَر في السن لا غير، لكنه ترك باقي الدلالات الجاهلية كما هي دون أن يعمل على ردها أو إماتتها، فبقيت اللفظة ودلالاتها دنيوية صالحة للاستعمال والتطور.

واستقراء الشعر الإسلامي والأموي يظهر أنَّ اللفظة لم تخالف في استعمالاتها السِّياقية الدلالات الجاهلية؛ ومرد ذلك إلى أنَّ الشعراء كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومازالت فيهم بقية من آثار الجاهلية، إن لم تكن تقاليد الشعر الجاهلية كلُّها فيهم، كما يرتد إلى امتثال الأمويين سمْت الجاهليين، فهم الأعراب البداة الذين لا يزالون محافظين على مفهوم القبيلة والعشيرة ومستلزماتها، ولا سيما الشعر؛ ويبقى هذا تصور استقرائي عام لا يمكن الجزم به إلا إذا درست نصوص هذين العصرين دراسة مستوفاة، وهو ما يخرج عن مرامي هذا البحث.

ثالثًا : الشِّعر العبَّاسيّ:

وإذا كانت الاستعمالات السَّابقة للعصر العبَّاسيِّ الأول تؤلِّف زمنًا دلاليًّا واحدًا يُرْجِعُ إليه في تأثيل دلالة الشَّيخ، فإنَّ العصر العبَّاسيَّ لا يخالف كثيرًا نسق هذا الزَّمن إنْ لم يكن موافقًا له في غالب الأحيان؛ ويقضي هذا بأنَّ مفهوم التحديث في الشعر العربي القديم يجب أنْ يُدرسَ بحذر شديد، ولا سيما عند بيان الفواصل الدلاليَّة والفنيَّة التي يمكن الاستناد إليها في الفصل بين هذه المتآلفات.

وقد انتشرت في هذا العصر مظاهر فكريَّة واجتماعيَّة ضمَّت في حواشيها القدرة الكامنة على الرُّقيِّ بالدِّلالة أو انحطاطها؛ لكنَّ تأثيرها الدِّلاليَّ لم يكن فعَّالا بالقدر الذي يمكن معه أن تتحول دلالات الألفاظ إلى دلالات جديدة ذات محمولات مباينة للقديم؛ فالشُّعوبيَّة والزَّندقة والزُّهد والمجون لم تستطع أنْ تكون محضنًا مبتدعًا للألفاظ والدلالات.

وإذا قصرنا الحديث على لفظة (الشَّيخ) وجدنا عزوف غير واحد من شعراء هذا العصر عن هذه اللفظة ونأيهم عن إدراجها في معجمهم الشِّعريِّ، فلم تظهر في شعر مروان بن أبي حفصة، ولا في شعر علي بن جبلة، ولا في شعر العبَّاس بن الأحنف، ولا في شعر مسلم بن الوليد، ولا في شعر ديك الجنِّ الحمصي، ولا في شعر مطيع بن إياس، ولا في شعر سلْم الخاسر، ولا في شعرربيعة الرَّقِّي، ولا في شعر يحيى بن زياد الحارثي... وغيرهم كثير، وهؤلاء الشعراء يتباينون في اهتماماتهم الشِّعرية ومقاصدهم الفنية، فمنهم مداحون، ومنهم غزلون، ومنهم هجَّاءون، ومنهم ماجنون لاهون، فلم يكن فقر الاستعمال مقصورًا على غرض واحد وإنما شمل معظم الأغراض الشِّعريَّة.

ومهما يكن من أمر هذا الغياب فإنَّ شعراء آخرين قد استعملوا هذه اللفظة على تفاوت في القلة والكثرة، وكيفيَّة الاستعمال ومقصديَّته، وجماليَّته وفنيَّته، ولا تختلف الدلالات المحوريَّة لهذه الاستعمالات عن مثيلتها في الشِّعْرِ الجاهليِّ والقرآن الكريم، فتمثلت اللفظة معاني: الأبوة، والسيادة، وامتداد العمر، لكنها تباينت معهما في الدِّلالات الحافة أو ما تسمى ظلال المعنى.

- **الأبوَّة:**

قال بشار بن برد[65]:

حَلَفْتُ بالقِبْلَةِ البيضاءَ مُجْتَهِدًا

وبالمَقَامِ ورُكْنِ البيْتِ والسُّورِ

لقدْ عَقَقْتَ عجوزًا جئْتَ مِن هَنِهَا

ما الشَّيخ والِدُكَ الأدْنَى بمبْرورِ

تحمل لفظة الشَّيخ في البيت دلالة الوالد، دلَّ على ذلك البدليَّة في كلمة (والدك)، ثم أتبع البدل صفة (الأدْنى) بمعنى الأقرب؛ لصرف النَّظر عن أي إحالة على معنى مجازي تحتمله لفظة الشَّيخ والوالد؛ فيكون الهجاء بمساس الأب القريب أشدَّ، فالمهجو عاق لوالديه وهذا معنى ظاهر، لكن استعمال لفظتي العجوز والشَّيخ أعطتا معنى على معنى فهو لا يعقُّ أبًا صغيرًا لا يحتاج إلى رعاية، بل يعقُّ أبًا كبيرًا يحتاج إليه أشد ما تكون الحاجة، فجاء الهجاء مُركَّبًا من جهة عقوق الأب عامة، وعقوق الأب الكبير خاصة.

واختلف الاستعمال عند أبي نواس فجعل اللفظة

دالة على الآباء جميعًا، فجمع بين الأقارب منهم والأباعد، قال[66]:

أبحْتَ من ابن اخْتِكَ غيْرَ حلٍّ وقلْتَ عهِدْتُ أشياخي كذَاكا

ومدار الهجاء في البيت هو لفظة الأشياخ المضافة إلى المهجو لتخصيصه بالتنقص والازدراء، فاقتراف المحرم قبيح لكن الاعتذار عنه بما لا يقف حجة أقبح؛ إذ أجرى اعتذاره على طريقة من كفروا فاعتذروا قائلين: (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ)[67]، فجاء الهجاء عامًّا شمله وآباءه وأجداده.

وشاكل استعمال أبي تمام استعمال بشار للفظة الشَّيخ بالمعنى الأبوي، فكلاهما جاء في معرض العقوق والنعي على العاق وفعله، قال[68]:

يجُرُّ الخُزوزَ، وشيْخٌ له

بنَهْرِ المُبارَكِ ما يسْتَتِرْ

ويعير الولد بلباسه الخز أي الحرير وأبوه عريان من شدة الفقر، فالشَّيخ بمعنى الأب، والسِّياق إخباري لا تمسه الصور الفنية، لكن جملة الحال رسمت صورة لهيئة الأب ومظاهر عقوقه، فلم تأت لفظة الشَّيخ فيها موافقة لضرورة شعرية، وإنما قصد إليها قصدًا للتعبير عن حال الضعف والهوان التي لحقت الأب، فهو شيخ كبير السن لا يقوى على العمل لتحصيل معاشه، وستر نفسه، وشبه الجملة (بنهر المبارك) تزيد من غاية الهجاء، فهي إنْ حُملتْ على بعد الشقة بينهما كان الذنب كبيرًا؛ فعلمه بحال أبيه من كبر سن وضعف وعدم وصال دليل على شدة عقوقه، وإنْ حُملتْ على قرب المسافة بينه وبين أبيه كان الذنب أكبر؛ إذ لا شيء يمنع من وصال أبيه وبرِّه سوى العقوق الصارخ، فتظاهر البيت بكل ألفاظه على إثبات المعنى الهجائي وتعميقه.

ولم يخل استعمال أبي العتاهية للفظة الشَّيخ من دلالة الأب، قال[69]:

قد يستشيرُ الشَّيخ أبناءهُ ويقْبِسُ الحكْمَةَ من عِرْسِهِ

والعقل مقسومٌ فلا تزْهَدَنْ

في طلبِ العلْمِ وفي قبْسِهِ

وهي دلالة زهدية لا يتعالى فيها الشَّيخ على أبنائه بل يسألهم ويطلب مشورتهم، ويتجاوز ذلك إلى قبس الحكمة من زوجه، في صورة تلغي الرَّواسم القبليَّة القديمة التي تفرِّق بين الذَّكر والأنثى، وبين الكبير والصغير.

ويلاحظ على الاستعمالات السابقة أنَّ لفظة الشَّيخ إذا جاءت مفردة دلت على معنى الأب الحقيقي (البيولوجي)، بينما تدل في صيغة الجمع على الآباء عمومًا من الأقارب والأباعد الذين يتنزلون منزلة الأب، ويقومون مقامه.

- **السِّيادة والرِّياسة:**

قال إبراهيم بن هرْمة[70]:

نِصَالُ بني الشَّيخ المُولَّى على الكُنَى

أصابتْ جُرومًا منْهُمُ واسْمَألَتِ

جاء تركيب لفظة الشَّيخ هنا بأسلوب الإضافة المفيد للتعريف، ثم خصص الشَّيخ بالصفة لإفادة المدح، فأصبحت اللفظة مرتكزًا دلاليًّا في البيت

سيطر على حركة المعنى فيه، ويظهر ذلك حسب التوصيف الآتي:

- النِّصالُ أصابتْ جُرومًا.

- نصال بني الشَّيخ. .... أصابتْ جُرومًا.

- نصال بني الشَّيخ المولَّى على الكُنَى.... أصابتْ جُرومًا.

وتجريد العبارة من المتضايفين يعطي معنى إخباريًّا حسب، لكن تعريف المبتدأ النكرة بالإضافة أعطى معنى دالا على المديح، فعقاب بني الشَّيخ لحق بالأعداء، وزيادة الصِّفة أعطى معنى إضافيًّا آخر، مؤداه: إنَّ عقاب بني الشَّيخ الذي له حق الخلافة بحكم قرابته من النبي صلى الله عليه وسلم، لحق بالأعداء. ومن هنا تتجلى الفوارق الكبيرة بين العبارات الثلاثة، فمن عبارة إخباريَّة محضة، إلى عبارة دنيويَّة تقضي بالغلبة لبني السَّيد أو الرَّئيس المقدام، إلى عبارة دينيَّة تجعل من الانتصار توفيقًا إلهيًّا قام به من اتصل نسبه بالرسول الكريم.

ولم يمنح أبو تمام اللفظة في هذا المعنى شيئًا من بديعه الذي شغف به، فنراه يستعملها استعمالا باردًا يفتقر إلى الصور الفنِّيَّة، قال[71]:

ولو عَلِمَ الشَّيخانِ أُدٌّ ويَعْرُبٌ

لَسُرَّتْ إذنْ تلكَ العِظَامُ الرَّمائِمُ

فلو استبدلنا بالشَّيخين لفظة السَّيدين لصح المعنى واكتمل، لكن (السَّيدان) لا تواتي النَّص عروضيًّا فارتأى أنْ يستعمل (الشَّيخان)، ويقوِّي هذا التأويل أنَّ لفظة الشَّيخ لا تُشكِّل مرتكزًا دلاليًّا يشيع أثره في البيت، وإنْ كانت تركيبيًّا أصلا في بناء الجملة فهي فاعل، وهو ركن من أركان الإسناد، لكنَّ المُعوَّل عليه في الدلالة هو البدل ومعطوفه (أدّ ويعرب).

ويتفق استعمال اللفظة للدلالة على السِّيادة في هجاء أبي نواس، قال[72]:

فنحنُ مَلَكْنا الأرْضَ شرْقًا وغرْبًا

وشَيْخُكُ ماءٌ في التَّرائِبِ والصَّدْرِ

والشَّيخ هنا مقابل للسيد أو رئيس القبيلة، ويظهر هجاؤه بتحقير شخصه وتصغير أفعاله في مقابل أفعال الهاجي، فقومه ملكوا الأرض ولم يكن شيخهم قد خُلِق بعد، وفي هذا تهوين من مقام السَّيِّد = الشَّيخ بإذكار المهجو عدمية شيخه قبل أن يكون.

ولا يمكن حمل دلالة الشَّيخ على السيد أو رئيس القبيلة من بني تميم قبيلة الشاعر كما يوضحه مجمل النَّص، فالشَّيخ هنا يتسع ليشمل العرب جميعًا، وهو الرُّوح الشُّعوبيُّ الذي كان يتنفس هواءه أبو نواس، ويقوي هذا تلك المطابقة بين الملك والشَّيخ، فهم ملوك والعرب شيوخ، ولذلك قال قبل هذا البيت[73]:

تُفاخِرُ أبناءَ المُلوكِ سَفاهَةً

وبَولكَ يجري فوقَ ساقِكَ والكَعْبِ

وتنخفض حدة هذا الروح في بيتين آخرين حملت فيهما لفظة الشَّيخ المعنى ذاته المتمثل بالسيد والرئيس، قال هاجياً أحدَ الرُّقاشيين[74]:

هيَ القِدْرُ قِدْرُ الشَّيخ بكْرِ بن وائل

ربيعُ اليتامى عامَ كلِّ هُزالِ

فأضاف القِدْرَ الدالة على الكرم والجود إلى بكر

بن وائل أحد سادة العرب، والبيت قائم في مجمله على التهكم والسخرية بالمهجو، من حيث تشبيهه بما ليس فيه، فهو مبخَّلٌ يدَّعي الكرم والجود إلى درجة أنَّ قِدْرَهُ كقِدْرِ بكر بن وائل، لكن لفظة الشَّيخ احتفظت دلالتها بالقيمة الإيجابية من جهة إضافتها إلى ما هو إيجابي، وإن كان المقصود هو الهجاء بصورته السلبية.

وقال هاجيًا أحدهم[75]:

تنَزُّهًا عنْ شيخِهِ داهرٍ وبَاعيونٍ ملِكِ الصّينِ

شيخ هنا جاءت بمعنى السيد الرئيس بدلالة البدلية (داهر) وهو تأريخيًّا ملك الديبُل من مدائن السند[76]، فالمهجو ينسب نفسه بأفعاله إلى الفرس ويتنزه عن أصوله السِّنديَّة الصّينيَّة، قال قبل هذا البيت[77]:

ولا يُسَمِّي الدَّهْرَ مملوكَهُ إلا بغرْسٍ أو ببَيْرينِ

فإنْ تعدّاهُ إلى غيْرِهِ مِنَ الأسَامِي فبإفشينِ

وهذه الأسماء لملوك الفرس وأعيانهم، فيكون انتحالها من المهجو انتحالا تفضيليًّا للفرس على غيرهم، وبيان أبي نواس له كاشف عن ضعف فخره ورداءة أصله في نظره، آية ذلك استعمال لفظة (تنزهًا) التعليلية، التي تفيد بمجاورتها لفظة شيخ بعدًا سلبيًّا لها أتى من البدل (داهر) الذي يقل حسب رأي الشاعر عن غيره من ملوك الفرس.

ويشتد الاستعمال في الهجاء الديني، وفيه يسعى الشاعر إلى تسفيه مخالفه في المعتقد، ومن أجل ذلك تلحق اللفظة أوصاف من السباب والشتائم، قال دعبل الخزاعي[78]:

أولئك، لا أشْياخُ هنْدٍ وتربها

سمية من نوكى ومن قذرات

والأشياخ هنا تُحْمَلُ على معنيين: أحدهما السادة، والآخر الأبناء، وكلاهما صحيح فالأبناء المقصودون سادة من السَّادات، هم: أبو سفيان زوج هند، ومعاوية ابنها، وزياد بن سميَّة المستلْحَق بأبي سفيان، لكن الشَّاعر أراد النيل من هؤلاء السَّادة، فأضافهم إلى هند وسميَّة تخصيصًا بهما دون غيرهما، ثم هجا الجميع من الأشياخ الحمقى، والإناث القذرات حسب تعبيره؛ فجاء التعبير سلبيًّا مطلقًا.

- **الكِبَرُ في السِّنِّ:**

جاء استعمال لفظة الشَّيخ في هذا النوع على نمطين: الأول النمط المجرد الذي دلت فيه اللفظة على المعنى المعروف من الكبر والضعف. والثاني النمط الملازم للإضافة وما يشابهها بحيث لا يتأدى إلى المعنى إلا بمجموع المضاف والمضاف إليه، فيصبحان دالا واحدًا.

واللفظة في كلا النمطين اتخذت معاني مختلفة، فكثرت فيها الدلالات الحافة أو ظلال المعنى، ويمكن الاطمئنان في الحكم الدلالي إلى كون هذا النوع هو الذي أكسب اللفظة التَّعدد الدِّلاليَّ؛ إذ إنَّ الكِبَرَ يتضمن كثرة من المدلولات يمكن للفظة احتمالها كما سيتبين في التحليل.

النمط الأول: الشَّيخ مجردًا

قال أبو تمام[79]:

تظُنُّهُ شَيْخَهُ لولا شَبيبَتُهُ

والـزَّرعُ يَنْبُتُ فذًّا ثمَّ يَكْتَهِلُ

يـلاحـظ أنَّ الـلفـظـة لم يتبعها مـن الألـفـاظ مـا يخصصها بمعنى مغاير لمعنى الشَّيخ العام، فالضمير (الهاء) عائد على الممدوح لوصفه حسب؛ لذلك عُدَّت اللفظة مفردة واحتفظت بمعناها دون أي إضافة تُصيِّرُ المعنى إلى مغايره.

ويلاحظ أيضًا أنَّ علاقة الطِّباق بين الشَّيخ والشَّاب تسفر عن دلالة موازنة بين حالين: الأولى حال الشَّيخ وما يتخللها من الهيبة والوقار وصحة الـرأي، والحال الثانية حال الشَّاب وما يتخللها من الحركة والنشاط واشتطاط النظر وسوئه، فالممدوح سمق حتى ظننته شيخًا وهـو مـازال شابًّا، فجعل للشيخ حالا إيجابية يتوصل إليها بعد لأي وجهد، وهذا ما يعكسه الشَّطر الثاني الذي يحوي علاقة طباق أخرى بين الفذ والاكتهال، فالفذ التفرد والوحدة، وهو من خصائص الزرع الذي ينمو بادئ الأمر فردًا ثم يكتهل فيتصل بعضه ببعض، فينضج ويكتمل؛ مما يزيد المعنى إضاءة بـأنَّ الممدوح في شبيبته يتحلى بنُهَى الشيوخ خبرة ودراية، فهو قادرعلى الاتصال بهم ومجاراتهم.

وقال أيضًا[80]:

فلا الأحْداثُ بالأحْداثِ تُرجى

فواضِلُهم ولا الشِّيخانُ شِيبُ

وينفي في هذا البيت الفضل عن المهجوين أحداثًا وشيخانًا، معتمدًا على التِّكرار اللفظيِّ والمعنويِّ فقد كرَّر لفظة الأحداث لفظيًّا، وكرر لفظة الشَّيخ معنويًّا الشَّيخان والشيب، واختار الشَّيب لأنَّه وقار، ونزْعُ الفضل نزْعٌ للوقار الذي يقتضيه الشيب.

وقال أبو نواس[81]:

قد يرقَعُ الشَّيخ موسى وجْهَهُ نَصَفًا وجلُّ لحيتِهِ والـرَّأسُ بالرِّيشِ

ولم يؤثر الفاعل والبدل في تقديم معنى جديد، ويعود ذلك إلى إمكانية حذف المبدل منه مع بقاء المعنى تامًّا، فيصح القول: يرقع موسى وجهه نصفًا، فضلا عن إمكانية استبدال أي اسم بدل موسى ممن ينطبق عليه وصف البيت الكلي، فموسى هذا هو أحد النخاسين، وما يجمع بين الشَّيخ والنِّخاسة هو النَّخاس نفسه وطول باعه في مهنته، وقدرته على مخاتلة المشتري، فلو دفعت به الحاجة إلى أنْ يجعل وجهه وجه أنثى لما تردد عن ذلك. بيد أنَّ لفظة الشَّيخ جاءت في معرض التعنيف والازدراء؛ فهذا النَّخاس كبير في السِّن ومع ذلك لا يرعوي عن القيام بما يبتذل نفسه ويهينها.

وجاء استعمال هذه اللفظة وفق هذا النمط في ثلاثة مواضع من شعر أبي العتاهية، قال[82]:

الموت لا والدًا يُبْقي ولا ولَدًا ولا صغيرًا ولا شيْخًا ولا أحَدًا

فالشَّيخ أو كبير السن يتفق مع باقي مراحل الإنسان في حتمية الموت ونهاية الإنسان، ومن ثم يكثر التعبير عن هذه الحقيقة في باب الزهد؛ دعوة منه إلى نبذ الدنيا وكراهيتها، وترداده للمتضادات لا يعدو أن يكون تفصيلا لعموم لفظة (أحدا).

وتضاف لفظة الكبير إلى الشَّيخ في دعوة الكبير في السن إلى الرشاد وترك الغي، قال[83]:

نستوفِقُ اللّه لمَا نُحِبُّما

أقْبَح الشَّيخ الكبيرَ يصْبُو

لكننا لا نجدُ أثرًا لهذه الصفة كالذي وجدناه في الاستعمال القرآني، فمن جهة المعنى يصح القول: ما أقبح الشَّيخ يصبو، فتؤدي المطلوب دون الحاجة إلى (الكبير) الذي يشعر القارئ أنه قد أتي به لاستكمال الوزن العروضي لا غير.

وبحنو الزاهد ورقته يصور أبو العتاهية نكبة البرامكة ليجعلها عبرة لمن يرتجي الحياة ويجعلها وكده وغايته، فيذكر حال يحيى البرمكي، قال[84]:

والشَّيخ يحيى الوزيرُ أصْبحَ

قدْ نحَّاهُ عن نفْسِه وأقْصَاهُ

ولا توحي لفظة الشَّيخ برتبة سياسية، فالرتبة هي الوزير، فيمكن القول: ويحيى الوزير أصبح قد... لكن لفظة الشَّيخ دلت على معنى مغاير هو العبرة والموعظة، فهذا الوزير خدم الخليفة قبل خلافته وبعدها، ووخطه الشيب في خدمته، ومع ذلك نكبه الرشيد ونحاه وسجنه، ولبيان أثر لفظة الشَّيخ في البيت انظر إلى هاتين الجملتين:

- والشَّيخ أصبح قد نحاه...

- ويحيى الوزير أصبح قد نحاه...

إنَّ الجملة الأولى تفيد معنى زهديًّا تأتى من لفظة الشَّيخ مرتكز البيت، ويمكن أن تدل على تصوير هجائي للسلطة اجتمع مع الزهد؛ فالشَّاعر يقول: إنَّ السُّلطة سرعان ما تنقلب على أتباعها وأعوانها، ولا تفرق بين من خدمها مدة عمره ومن خدمها مدة وجيزة، وإذا كان الأمر كذلك فاحذروا انقلابها عليكم، وبهذا يجتمع الزهد والهجاء[85] في لفظة الشَّيخ بالعبرة والموعظة من طرف، وكشف حقيقة السلطة من طرف آخر.

ولا تمنح الجملة الثانية هذا المعنى بكامله، فهي تقع ضمن التعداد الاسمي الذي ليس وراءه كبير معنى، ويؤكد ذلك قوله قبل هذا البيت:

فذاكُمُ جعفر برِمَّتِهِ في حالقٍ رأسُهُ ونِصْفاهُ

فاكتفى بذكر جعفر ذكرًا مجردًا دون الوصف، لكنه كسر هذا التجرد عند ذكر يحيى فسبقه بلفظة الشَّيخ.

ويقرر صالح بن عبد القدوس خصيصة في الشَّيخ الكبير في السن، قال[86]:

والشَّيخ لا يتْركُ أخْلاقَهُ حتى يُوارى في ثرى رمْسِهِ

وهي خصيصة تحمل على السلب والإيجاب، فقد تكون الأخلاق إيجابية وقد تكون سلبية، وفي كلا الأمرين يعكس ثبات الشَّيخ على خلقه لا يحيد عنه ولا يتخلق بغيره.

وذهب أبو دلامة في استعماله هذه اللفظة أبعد من الإضحاك والتسلي، فقد استعملها لتحقيق مآربه من السلطة العباسية، وجمع بذلك بين الأمرين، قال مخاطبًا الخيزران زوج المهدي[87]:

إنَّني شيْخٌ كبيرٌ ليْسَ في بيتي قَعِيدَه

غيْرُ عجفاءَ عجوزٍ ساقُها مثلُ القَديدَه

فهو يصف نفسه بالشَّيخ الكبير الذي يخلو بيته من مؤنسة تؤنسه، ومن جليسة تعمره، فربط حاجته

أولا بكبر سنه وضعفه، ثم هجا زوجه هجاءً مقذعًا، فمقامه معها يفسد عليه حياته، فجاءت لفظة الشَّيخ للاستجداء واستمالة العاطفة للعطاء، ثم جاء الإضحاك تاليًا بهجاء الزوجة، ولم يراع دقة الوصف في البيت الأول بعد أن أتبع الشَّيخ صفة الكبر الدالة على ضعفه المتناهي، فما حاجته والحال كذلك إلى (الوليده)؟ ويسوغ هذا الاستعمال مقام الظرف، فكل ما أراده أبو دلامة هو تحقيق مطلبه، دون الالتفات إلى الصور الفنية أو الاستعمالات الدلالية الصحيحة.

ونراه يستعمل لفظة الشَّيخ في موضع آخر قائم أيضًا على العطف والاستجداء، فقد أنشد الخليفة المنصور بعد أن أمر بهدم داره[88]:

يا ابنَ عمِّ النَّبيِّ دعوةُ شيْخٍ

قَدْ دنا هَدْمُ دارِهِ ودمارِهِ

لكُمُ الأرضُ كلُّها فأعيروا

شَيْخَكُم ما حوى عليه جِدارُه

وهنا كما في السابقة يتعمد استعمال لفظة الشَّيخ لكي يستعطف المنصور لينفك عن هدم داره، لكن الاستعمال المدهش عند أبي دلامة الذي يتلاءم مع شخصيته التكسبية هو في اللفظة الثانية (شيخكم) فقد أضاف الشَّيخ إلى ضمير المخاطب الجمع، ليثبت ولاءه وهو شيخ لبني العباس. والحال العامة في الموضعين تمنح الشَّيخ دلالة الفقر، فالاستجداء جاء من شيخ فقير لا يملك جلب جارية له، كما لا يملك غير بيته.

ويؤوب أبو دلامة إلى الجد تاركًا الهزْلَ في قوله[89] :

هذي مقالة شيخ من بني أسَدٍ يُهدي السَّلامَ إلى العبّاسِ في الصُّحُفِ فيسقط على نفسه المهابة والإجلال بذكر قبيلته التي ينتسب إليها، فيوحي بتحول في طريقة الاستجداء، إذ نراه يرسل رسالة شعرية منه إلى ممدوحه على صورة مراسلات الملوك ومخاطباتهم ليظهر قوة وسلطة، لكن الرسالة ليست سوى طلب للصلة والعطاء، فبعد أبيات كثيرة سرد فيها قصة تعشُّقه امرأة، قال[90]:

فإنْ تصِلْني قضيتُ القومَ حقَّهُمُ

وإنْ تقلْ لا فحقُّ القومِ في تَلَفِ

والربط بين البيتين على المستوى الرأسي يوحي بالاستعمال السلبي للفظة الشَّيخ، وإن كانت في البيت الأول قد اكتسبت بعدًا إيجابيًّا؛ مما يوحي بتحول الدلالة من الإيجاب إلى السلب؛ فبعد أن أسقط على نفسه أبهة السادة، عاد في نهاية القصيدة ليمحو هذا كله ويتمثل صورة شيخ فقير يستجدي.

وجاءت لفظة الشَّيخ مجردة في سياقات خمرية، قال أبو الهندي[91]:

يا خليليَّ اسْقياني عَفْوهَا

بالبواطي البيضِ ليْستْ بالعُلَبْ

من شَرابٍ خُسروانيٍّ إذا

ذاقَهُ الشَّيخ تغنَّى وطَرِبْ

وبمثل هذا السِّياق تمثل أشجع السلمي، قال[92]:

لا عيشَ إلا في جنون الصِّبا

فإنْ تولَّى فجنونُ المُدامِ

كأسٌ إذا ما الشَّيخ والى بها

خَمْسًا تردَّى برداء الغُلامِ

وبمثله أيضًا تمثل العطوي، قال[93]:

ألم ترَّ أنَّ شُربَ الرّاحِ صِرْفًا

ومَزْجًا بالصِّغارِ وبالكبارِ

يردُّ الشَّيخ ذا السِّتينَ غِرًّا

غُلامًا فمَا يفيقُ من الخُمارِ

وبمثله تمثل أبو تمام، قال[94]:

لذَّةُ الطَّعْمِ تَمُجُّ المِسْكَ في الأقْداحِ مَجّا

كستِ الشَّيخ شبابًافاكْتَسى شِكلا وغُنْجا

وتواتر هذا الاستعمال يوحي بما تكتسبه لفظة الشَّيخ في سياقه، فالشَّيخ على الحقيقة يسعى إلى طلب اللذة والمتعة لكن ضعفه يحول دون القيام به، ولا بد من فعل يستحيل فيه الضعف قوة فتأتي الخمر بمذاقها لتسري فعلها فيه. وجاءت تحولات الشَّيخ في الأبيات على النحو الآتي:

ذاقه الشَّيخ : تغنى وطرب، كسر للهيبة والوقار. نزول بالدلالة من الإيجاب إلى السلب.

الشَّيخ والى بها خمسًا : تردى برداء الغلام، تحول زمني عمري بدلالة الطباق، تخلص من السلب إلى الإيجاب.

الشَّيخ ذا الستين : غلام ما يفيق من الخمار، تحول زمني عمري بدلالة الطباق، من السلب إلى السلب بدلالة جملة الصفة (ما يفيق من الخمار).

الشَّيخ : الشباب : التدله والغنج، تحول زمني عمري، بدلالة الطباق، من السلب إلى السلب بدلالة الجملة المعطوفة (فاكتسى شكلا وغنجا).

وهذا تجسيد واضح عند شعراء الخمر للفظة الشَّيخ في معناها السلبي، ولكن لماذا اختار الشعراء هذه اللفظة؟ لا شك في أن رحلة اللذة والمتعة لدى الإنسان طويلة جدًّا، ويبذل فيها جهده بغية التمتع بكل مراحلها، لكنه يعلم أنه سيلقي عصا تسياره في لحظة الشَّيخوخة التي تجعله منكسرًا أمام نشواته وغرائزه، لذلك ينقلب عليها ويحاول دفعها ليبعث في نفسه حياة جديدة تشعره بكل مآربه الدنيوية؛ فتمثل لفظة الشَّيخ وإيحاءاتها عند مجان العصر العبَّاسي أرقًا وهمًّا شديدين، قال دعبل الخزاعي[95]:

ما يصْنَعُ الشَّيخ بالعذْراءِ يَمْلِكُها

كجَوزَةٍ بين فكَّي أدْرَدٍ خَرِفِ

إنْ رام يكْسِرُها بالسِّنِّ تثْلِمُهُ

وكَسْرُها راحةٌ للهائِمِ الدَّنِفِ

وهنا يوضح العلاقة بين الشَّيخ والعذراء، بين الضعف والقوة، وهي تركيز مفعم باليأس من تحقيق الفحولة التي يربط كثير من الناس وجودهم بها، وهي نظر مادي خالص لايعنيه منه سوى إثبات القدرة، ويؤيد هذا لفظة الراحة في البيت الثاني التي تمثل الانتصار الحقيقي للفحل.

وإن كان دعبل قد وقف موقف الضعف والانهزام فإنَّ غيره يقاوم ليثبت فحولته، قال العطوي[96]:

تاهَتْ عليَّ بحسْنِها وجَمَالِها

وتقولُ لي يا شيخُ أنتَ مُخادِعُ

شيْخٌ وإفلاسٌ وقُبْحٌ ظاهِرُ

أطَمِعْتَ فينا أخلفتْكَ مَطامِعُ

فأجبْتُها الإفلاسُ يُذهِبُه الغِنى

والشَّيبُ يُذْهِبُهُ الخِضابُ النّاصِعُ

والشَّيخ هنا مرتكز دلالي في الأبيات؛ فالخطاب موجه إليه حال كونه كبيرًا في السن، فألزمته أولا صفة المخادعة التي كان يحتال بها لتحقيق ما رام إليه، والخداع إظهار غير الحقيقة ولا يلجأ إليه إلا الضعيف المنكسر، ثم تبين حقيقته ومعايبه فتقدم كبره في السن على إفلاسه وقبح منظره، لكنه يصر على تغطية هذه المعايب كما في البيت الثالث، ليدفع نحو ثنائية الحسن والشَّيخ، لإثبات أنَّ الشَّيخ ما زال قادرًا فحْلا يتتبع الجمال ويتمنى وصاله، والحال ليست كذلك.

النمط الثاني: الشَّيخ ملازمًا غيره

وقراءة هذا النمط متعلقة بالمتلازمين اللذين يشكلان دلالة واحدة تتغير في حال انبتّ أحدهما عن الآخر، وهذا ينتج تعددًا في الدلالة لكنه تعدد مرهون بالمتلازم الثاني، أي اللفظة المتصلة بلفظة الشَّيخ، وما تؤديه لفظة الشَّيخ في هذه العلاقة هو معنى الكِبَر بالمفهوم الواسع له، فإذا قلنا: شيخ التُّجَّار، كانت الدلالة كبير التُّجَّار. أو قلنا شيخ الإسلام كانت الدِّلالة كبير العلماء، أو قلنا شيخ الصوفيَّة كانت الدلالة كبير المتصوفة،... فالمعنى يتحدد باللفظة الثانية وإيحاءاتها.

ولا تقتصر الدلالة المتلازمة على لفظة واحدة تلازم لفظة الشَّيخ، فقد تكون جملة أو شبه جملة، فتفهم الدلالة بمجموع السياق لا بمفرداته، وكان هذا النوع قليل الاستعمال والدوران في الشعر العباسي موضع الدرس، إلا أننا لا نعدم ما يمثل عليه من الشواهد، قال أبو دلامة[97]:

فقامَ شَيْخٌ بَهيٌّ من تجارِهِمُ

قَدْ طَالما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِفِ

والصفة (بهي) لا تعطي معنى متلازمًا مخصوصًا بلفظة الشَّيخ، فجملة: قام شيخ بهي طالما خدع الأقوام بالحلف، تكشف عن ارتباط أجزائها ارتباطًا يتلاءم وموضعها في السياق، فقد تراصت دلاليًّا على النحو الآتي: شيخ بهي، خادع، الحلف. فالعلاقة الطباقية بين البهاء والخداع تشير إلى صورة سلبية لهذا الشَّيخ فهو شيخ خادع، بينما تؤكد شبه الجملة (بالحلف) وسيلة الخداع المتلائمة مع البهاء، فسيما الوجوه ببهائها مظنة لتصديق الأيمان التي تصدر عن صاحبها.

وهذا العموم تخصصه شبه الجملة (من تجارهم)، فالشَّيخ البهي الخادع ليس فردًا عاديًّا، وإنما هو من طبقة اجتماعية يمثلها التجار الذين يصح وصف بعضهم بالبهاء والخداع، فدلت شبه الجملة على أن الشَّيخ هنا هو من التجار، فتصبح المتلازمة شيخ التجار بما توحي إليه من دلالة سلبية.

ويقدم أبو تمام متلازمة مفردة تتمثل بالمضاف والمضاف إليه، قال[98]:

يموتُ مشايخُ الكتّابِ هَزْلاً

ورزقُكَ أنْتَ في السِّتينَ يجْري

وهذا استعمال نادر للفظة الشَّيخ قد لا نجده عند

شعراء العصر، فـ (مشايخ الكتاب) توحي باحتراف هذه الصناعة والتميز بها، فكلٌّ من كبرتْ سنُّه وقدم عهده في الكتابة غدا شيخًا من شيوخها، وما يميز هؤلاء الشيوخ قلة ذات اليد عندهم، والفقر الذي يعوزهم إلى غيرهم، الخليفة خاصة، ذكر الجهشياري: «وحضر ديوان الخراج في أيام الرشيد شيخ من قدماء الكتاب، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه، فعني الكُتَّاب به، وزجُّوا كتابه، فقال لهم: احفظوا عنَّا ثلاثًا: الجوار نسب، والمودَّة نسب، والصِّناعة نسب»[99]. فلازم أبو تمام بين الشَّيخ والكتاب للدلالة على هذه الطبقة الاجتماعية وما تعانيه من محن وهموم.

وصنع أبو نواس بالشَّيخ صناعات أخر، فجعله مضافًا إلى اللهو والظرف، وجعل من نفسه شيخًا ورأسًا في المجون، قال[100]:

اسْقِني واسْقِ ذَفافَة يا أبا الحُرِّ سُلافَه

واسقِ شيْخَ اللهْوِ والظَّرْ فِ على يُمْنِ العِيافَه

وتدل متلازمة شيخ اللهو والظرف على من كبرت سنه وعرف اللهو وحقيقته حتى أصبح رأسًا فيه، وفي رواية إحدى المخطوطات (رأس اللهو)، وبهذا فهي متلازمة مدحية عند أهل المجون الذين يتبارون ويتنافسون في تجويد مجونهم وتحسينه والتفوق فيه.

وفي بيت آخر يضم أبو نواس لفظة الشَّيخ إلى عرق بشري هو اليهود، فيكسب اللفظة سلبًا مركبًا، من جهة الشَّيخ ومن جهة اليهود الذين كانت صورتهم سلبيَّة في الشعر العباسي، قال[101]:

خطَبْنا إلى الشَّيخ اليهوديِّ بنتَهُ

فزوجَنيها وهي شَمْطَاء عابِسُ

ويلاحظ هنا أن التلازم جاء بالوصف للدلالة على سوء الشَّيخ وضعته، وانتقل هذا السوء إلى بنت الشَّيخ، فإذا كان أبوها شيخًا فهي شمطاء، وإذا كان أبوها يهوديًّا فهي عابس، فهذا التناسب بين دلالتي الشطرين يعمق سلبية اللفظ في تلازمها مع اليهود.

ولعل هذا من لهو المجان في الحانات والأديرة التي كان اليهود يعتقون فيها الخمر ويسقونها، قال أبو نواس[102]:

سُمْتُها عنْدَ يَهوديٍّ خَصيبِ المُسْتَرادِ

وقال[103]:

ولكن يهوديٌّ يحبُّكَ ظاهرًا

ويُضْمِرُ في المكنون منه لك الخَتْرا

وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ لفظة الشَّيخ في قصيدة صبوح التي حللها كمال أبو ديب قد تعني الشَّيخ اليهودي أو النَّصراني تبعًا لطبيعة الساقي في العصر العبَّاسي الأول الذي كان إمَّا نصرانيًّا وإمَّا يهوديًّا، وتبعًا لأمكنة السقاء التي كانت إما حانات وإما أديرة، قال[104]:

يا ابْنَةَ الشَّيخ أصْبحينا ما الذي تنْتَظرينا

قدْ جرى في عودهِ الما ءُ فأجْرِ الخَمْرَ فينا

إنَّما نَشْربُ مِنْها فاعْلمي ذاك يقينا

كلَّ ما كان خِلافًا لشرابِ الصَّالحينا

ويؤكد هذا التأويل اللفظة نفسها، فهي تتألف

من أل + شيخ، و(أل) هنا هي العهدية الدالة على السَّاقي اليهودي أو النَّصراني، وآية ذلك أنَّ رواية محقق الديوان[105] يعود فيها ضمير المخاطبة المفرد في لفظة (عودك) على البنت، فيجعل المرتكز الدلالي هو البنت لا الشَّيخ، ولا تمثل لفظة الشَّيخ سوى وصف للبنت بكونها ابنة شيخ يهودي سقاء.

وتحول الضمير في رواية الصولي المثبتة من ضمير المخاطبة إلى ضمير الغائب المفرد(عوده) يجعل الشَّيخ مرتكزًا دلاليًّا يقوم عليه النَّص، بحيث يكون الأمر متعلقًا بالشَّيخ لا بابنته، فقد جرى في عوده الماء . ويمكن أن يكون النبيذ المطبوخ أو شراب الصالحين . وهو يمثل القدرة والحيوية والنشاط فيرتدُّ به شابًّا قويًّا، فتكون الثنائية الضدية بين الشَّيخ والشاب، بحكم أن الأول يلتمس النشاط والحيوية في الماء، والثاني يلتمس النشوة في الخمر.

ولا تعطي لفظة (الصالحينا(معنى دينيًّا للفظة الشَّيخ، ذلك أنَّ أهل العصر لم يكونوا يتعاطون جميعًا الشراب المسكر المحرم، وإنما كان منهم من يتعاطى النبيذ المطبوخ وهو مباح على مذهب أهل العراق، لذلك سمَّاه أبو نواس شراب الصالحين تمييزًا له عن الشراب المسكر، ومن ثم لا يصحُّ تسمية كل من لم يعاقر النبيذ المحرم شيخًا متدينًا.

ويعضد هذا التأويل أيضًا أن تكون أل التعريف هنا جنسية دالة على كل الصفات التي يتصف بها الشَّيخ من الضعف والوهن، فيكون التقدير: يا ابنة من حوى كل صفات الشَّيخ من ضعف ووهن، قد جرى في عوده الماء فارتد شبابًا، فأجرِ الخمر فينا لننتشي منها، فشرابنا مخالف لشراب الصالحين (النبيذ المطبوخ)، والطباق مضمن بين الشَّرابين: النبيذ والخمر، فأولهما يسقاه الشَّيخ، والثاني يسقاه الشاب.

وبالجملة فإنَّ لفظة الشَّيخ في القصيدة تحتمل مدلولا متلازمًا دالا على الشَّيخ اليهودي، أو على الشَّيخ الكبير في السن، دون أن تتضمن دلالة التدين والإيمان.

خاتمة:

ناقشت المحاور المتقدمة دلالة لفظة الشيخ واستعمالها في شعر العصر العبَّاسيِّ الأول؛ ابتغاء الوقوف على طبيعة هذه اللفظة المعجميَّة وتمثلاتها السِّياقيَّة النَّصِّيَّة، فالمعجم والسِّياق هما المحددان الأصيلان للمعنى الذي يبتغيه الشاعر، فإمَّا أنْ يعمد الشاعر إلى المعنى الحقيقيِّ المعجميِّ فيستظهره في شعره، وإما أن يعمد إلى السِّياق فيتسع له المعنى ويمتد به أبعد من حدود المعجم.

وأظهرت المحددات أهمية السِّياق التَّركيبيِّ في تحديد الدلالة وبيان الجمال والقبح في النَّص، وإن كان السِّياق لم يسلم من الغموض، فاللفظة في السِّياق لا تقدم نفسها كما في المعجم، إذ إنَّ ارتباطها بمجاوراتها النَّصِّيَّة يخلق تعددًا في المعنى مباينًا للأصل المعجمي ومتجاوزًا إياه.

كما أظهرت المحددات أن تأريخية السِّياق لا تقل أهمية عن السِّياق ذاته، فهي مطلب نقدي يقوم بتحديد زمن النص لا من أجل استحضار الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمنشئه، وإنما

من أجل استحضار الإطار الدلالي للنص ذاته، وهو ما يعين على تحليل النص وتقديم قراءة مقبولة له.

وقد اتُّخِذَ هذان المحددان وتفصيلاتهما أساسًا نظريًّا للمحاور اللاحقة، فجاء المحور الثاني مبينًا لطبيعة لفظة الشيخ في المعجم، فرصد دلالاتها المعجمية التي تبين أنها لا تسقط على اللفظة مدلولا إيجابيًّا خالصًا، ولا سلبيًّا مطلقًا؛ مما يعني أن تحديد المدلول يتوقف على الاستعمال بتمثلاته السِّياقيَّة.

وتبين في المحور الثالث أنَّ لفظة الشيخ في الشعر الجاهلي تداولتها ثلاث دلالات، هي: الأبوة، والسِّيادة، والكِبَر في السِّنِّ، ولم يتفق من هذه الدلالات مع النَّص القرآني، كما أثبته المحور الرابع، سوى دلالة الكِبَر في السِّنِّ، وهي المعنى المعجمي ذاته، فكان الاستعمال السِّياقيُّ مشابهًا تمام المشابهة للمعجم، وما انشعب عنه من إيجاب وسلب.

واختص المحور الخامس بالشعر العباسي في عصره الأول، وخلص إلى النتائج الآتية:

- إنَّ لفظة الشَّيخ في شعر العصر العبَّاسي الأول لم يطرأ عليها أي تغيير دلالي يجعلها منبتة الدلالة عن المعنى القرآني والمعنى الجاهلي، بل اتفقت في استعمالاتها معهما، فاتفقت مع الشعر الجاهلي في معاني الأبوة والسيادة والرئاسة، واتفقت مع القرآن في الكِبَر في السِّنِّ وما يلحقه من إيجاب وسلب.

- وإنَّ الاستعمال العبَّاسيَّ قد اختص ببعض الدلالات المتلازمة التي لا نجدها في الاستعمالين السابقين، فرأينا أنماطاً من نحو: شيخ التُّجار، شيخ اللهو والظرف، ومشايخ الكتَّاب، لكنها لم تطرد في الشعر العباسي وكأنها كانت هزْلا عابرًا لا يقصد منه بناء تعبيرات يمكن لها أن تصبح دالة على فكرة معينة ذات أثر في الحركة الدلاليَّة الشِّعريَّة، ويقوي هذا مجيئها في أغراض هزْليَّة أكثر منها جادة كالظرف والفكاهة، والخمر، والهجاء.

- وإنَّ الشَّاعر العبَّاسيَّ كان يُطوِّعُ هذه اللفظة لتتلاءم مع الغرض الذي يقصد إليه، لذلك وجدناها مستعملة في غير غرض من أغراض الشعر، كانت فيها تأتلف وطبيعتها، فتركزت قريحة الشعراء على رياضة اللفظة وتطويعها مع أغراضهم.

- وإنَّ الدلالة الدينية التي اكتسبتها اللفظة بأخرى من العصر العبَّاسيِّ غير مستعملة في الحقبة الأولى منه؛ مما يسمح بعدم قبول هذا المعنى في قراءة النُّصوص الشِّعريَّة التي ترتد إلى تلك الحقبة.

- وإنَّ استعمال لفظة الشَّيخ في النَّصِّ الشِّعْريِّ العبَّاسيِّ ظهر بكثرة في شعر المُجَّان، الذين يرون المتعة واللذة أقصى غاية يصلون إليها؛ وهم يعلمون أنَّ هذه الغاية ستقصر عنهم إذا ما صاروا شيوخًا متحسرين على شبابهم، فجعلوا الخمر واللهو سبيلا لتجاوز هذه المرحلة والتَّمتع بالحياة ولذائذها في هذا العمر، وهي مُنْيَة يتمنَّاها من كان مغرقًا في المجون وضروبه.

وبعد، فإنَّ قراءة الدلالات بناء على آليات التحقيب التأريخي، ومعالم الغموض، وتأريخيَّة السِّياق، والتحليل النَّصي الذاتي يفيد إفادات كثيرة في فهم النصوص واستنباط دلالاتها المختزنة في سياقاتها المختلفة، ويقدم قراءات هي أقرب إلى الصحة والصواب من الأوهام النقدية.

الحواشي

1. الجرجاني،عبد القاهر،(ت471 أو 474هـ) ،دلائل الإعجاز،قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ط:3، 1992م.ص46
2. انظر، المصدر نفسه، ص46.
3. أينما وردت لفظة السِّياق في البحث مجردة فيقصد بها السِّياق النَّصي أو العبارة.
4. البلاغة قائمة على وصف الكلام وأقله الجملة المفيدة الدالة، وقد يتخطاها إلى علاقتها بالجمل الأخرى في السِّياق.انظر:حسان تمَّام،الأصول،دراسة أبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط:1988،1م. ص345ـ 346.
5. الجرجاني،عبدالقاهر(ت471أو 474هـ) أسرار البلاغة، ط1، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ط:1991،1م.ص4
6. إمبسون، ويليام، سبعة أنماط من الغموض،، ترجمة: صبري محمد حسن،القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط:1، 2000م،ص24. «التأكيد من عندي»
7. انظر، ناصف، مصطفى، مشكلة المعنى في النقد الحديث، القاهرة: مكتبة الشباب، ط:1، 1970م. ص 104.
8. هو الصمة بن عبدالله بن الطفيل، شاعر إسلامي بدوي مقل،من شعراء الدولة الأموية، انظر ترجمته:الأصفهاني،علي بن الحسين(ت 356هـ) الأغاني،، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط:2، 1997م. ج6، ص191.
9. دلائل الإعجاز، ص 46 ـ 47.
10. انظر، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ(لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط:1، 2000م. مادة (خدع). والليت في قول الصمة صفحة العنق، انظر، (مادة ليت).
11. انظر،المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن(421هـ) شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط:1، 1991م. ق3، ص 1218.
12. انظر، مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، ص 109 ـ 110.
13. هو الهيثم بن الربيع المعروف بأبي حية النميري، شاعر متقدم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. انظر، ترجمته: ابن المعتز، عبدالله (ت 296هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار فراج، مصر: دار المعارف، ط:3، 1976م ص 143. والأغاني، ج16، ص473.

14. الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 47 ـ 48.

15. انظر، لسان العرب، مادة شيا، وكان تعليق ابن منظور عليها قوله: معلوم. وعبارة سيبويه فيها: وهو يقع على كل ما أخبر عنه.

16. اعترض الأستاذ محمود شاكر رحمه الله ـ على عدم استحسان الجرجاني لفظة (شيء) في بيت المتنبي، فأوَّلها على أنَّه يقصد بها الاستهانة بكافور، لكن الاستهانة بالشخصية لا تعطي جمالاً للبيت، فضلاً عن أن البيت بمعناه وإيحاءاته قائم على المبالغة الهازلة التي لا توحي بجليل معنى فيها. انظر، دلائل الإعجاز، ص 48، حاشية (2).

17. انظر، ناصف، مشكلة المعنى في النقد الحديث، ص 28، 104.

18. بارت، رولان، النقد والحقيقة، ترجمة وتقديم: إبراهيم الخطيب، مراجعة: محمد برادة، الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط:1، 1985م.ص 21.

19. انظر، ناصف، مشكلة المعنى في النقد الحديث، ص 132.

20. Meaning and Style S. Ullmann، نقلاً عن عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، الكويت:مكتبة دار العروبة، ط:1982،1م.ص72.

21. انظر، دي سوسير، فردينان، علم اللغة العام، ط:1، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك المطلبي، الموصل: بيت الموصل، ط:1، 1985م. ص98 وما بعدها.

22. انظر في مسألة النظام في الدلالة والمعجم كتاب تمام حسان،اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة: عالم الكتب، ط:2006،5م.ص312وما بعدها

23. ناصف، مصطفى، مشكلة المعنى في النقد الحديث، ص 132.

24. إمبسون، سبعة أنماط من الغموض، ص 21.

25. بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة: نعيم الحمصي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ط:1، 1970م. ص15.

26 . انظر، راي، ويليام، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بغداد دار المأمون، ط:1987،1م. ص127.

27 . انظر، أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط:7، 1992م. ص 128.

28. انظر، المرجع نفسه، ص 251.

29. انظر، ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، ترجمة: محمد عصفور، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد: 206، 1996م. ص89.

30 . لسان العرب، مادة (شيخ).

31. انظر في شأن المركز والهامش في الدلالة، أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ص 106 وما بعدها.

32. الزمخشري،جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ) ، أساس البلاغة، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط:2003،1م. مادة(شيخ).

33. وقع هذا في تحليل الدكتور كمال أبو ديب لقصيدة صبوح لأبي نواس بعد أن حدد دلالة الشَّيخ بالمحمول الديني، وبنى عليه ثنائية الخمر والدين، فهو وإن استبعد المعنى التأريخي فقد جاء بمعنى تأريخي آخر؛ فغدت المسألة عنده مسألة اختيار وعزل لا غير، انظر، أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء والتجلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط:3، 1984م. ص 177 وما بعدها.

34. النَّحاس،أبو جعفر(338هـ) شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق: عمر الفجاوي، عمان: منشورات وزارة الثقافة، ط:1، 2002م. ص83

35 . ابن الأبرص، عبيد، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: تشارلز لايل، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط:2، 2003م. ص20.

36 . المصدر نفسه، ص27. والحين: الهلاك.

37 . الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم (ت 476هـ) ، كتاب الحماسة، دراسة وتحقيق: مصطفى عليان، مكة المكرمة: مطبوعات جامعة أم القرى، ط:1، 1423هـ. ج1، ص53.

38. يجعل النحاة من زيادات التوابع والحال والتمييز والمفعولات وغيرها من زوائد علاقات الإسناد المعروفة، زيادات جزئية أو فرعية، إذ إن المعنى الحرفي للعبارة لا يختل بحذفها، فمن الممكن الاستغناء عنها مع بقاء المعنى الإسنادي، لكن المعنى الإسنادي لا يكفي لتوصيف العبارة معنوياً ومعرفة مقاصد المتكلم، ولهذا يصحح القيد المقالة المعروفة كل زيادة في المبنى تفيد زيادة في المعنى، والأصوب أن يقال كل زيادة في المبنى تفيد تغيراً في المعنى، ومن ثم يتسع القيد أو النسبة الجزئية لبيان هذا المعنى. انظر، حسن، عباس، النحو الوافي، مصر: دار المعارف، ط:4، 1976م. ج3، ص1وما بعدها، حاشية (1).

39. الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، القاهرة:مكتبة الآداب،ط:1950،1م. ص151.الفرائص: جمع فريصة وهي اللحم بين الكتف والصدر.

40. المصدر نفسه، ص387.

41 . الأصمعي،عبد الملك بن قريب (ت216هـ) ، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، مصر: دار المعارف، ط:7،1993م. ص156

42. الذبياني، النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، ط:3،1990م.ص 42 ـ 43. والدوارب: والضاريات: المتعودات. والدوارب: المدرَّبات. والخزر: النظر بمؤخر العين. والمرانب: نوع من الأكسية لونه لون الأرنب، أو خلط في غزله وبر الأرنب.

43 . المصدر نفسه، ص 237.

44. ابن ربيعة، لبيد، شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس، الكويت: ط:1، 1962م. ص 93.

45 . ابن الصمة، دريد، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، مصر:دار المعارف، ط:1، 1985م. ص116

46 . الأعلم الشنتمري، كتاب الحماسة، ج1، ص225. يفن: الشَّيخ الكبير.تفتيت: أصبحت فتياً. والشكة: السلاح. والفند هو: شهل بن شيبان، شاعر جاهلي وأحد فرسان ربيعة المشهورين، وعمِّر حتى قارب المئة. انظر: الأغاني، ج24، ص 249.

47 . المصدر نفسه، ج1 / ص306. وهو مُجمِّع بن هلال بن خالد بن تيم الله، شاعر جاهلي، عُمِّر طويلاً حتى تجاوز المئة، انظر، المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج2، ص 713.

48 . ابن منظور، لسان العرب، مادة (زعم) .

49 . سيأتي بيان دقيق لأهمية هذا في تحديد المعنى في التمثلات القرآنية.

50 . الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى، (ت 178هـ) ، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، مصر: دار المعارف، ط:10، 1994م. ص33. والكلحبة هو: هبيرة بن عبدمناف بن عرين، شاعر جاهلي، من فرسان بني تميم وساداتها. انظر، البغدادي، عبدالقادر بن عمر(ت1093هـ) ،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،تحقيق وشرح:عبدالسلام هارون، القاهرة:مكتبة الخانجي،ط:3،1989.ج1، ص392.

51 . المفضليات، ص 35. والجميح هو: منقذ بن الطَّمَّاح بن قيس الأسدي، وهو فارس شاعر جاهلي، قتل يوم جبلة. انظر: البغدادي، الخزانة، ج10، ص 249.

52 . المصدر نفسه، ص 274. وهو بشر بن عمرو بن مرْثَدٍ، شاعر جاهلي، له ذكر في ترجمة الأعشى في الأغاني، ج9، ص79.

53 . انظر، التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الخطيب (ت 502هـ) ، شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:2، 1987م.ج3، ص1203

54 . انظر،الباقلاني،أبو بكر محمد بن الطيب(ت 403هـ) ،إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، ط:3. ص37.

55 . الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط:1، 1997م.ج3 / ص405 ـ 406.

56. انظر، القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ط:1. ج13، ص 216.

57 . الكشاف، ج3، ص406. وتابعه على ذلك القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص 216.

58. المقصود بذلك: أنَّ يوسف عليه السلام لم يأخذ أحداً بدل أخيه.

59. آل عمران، آية40.

60. مريم، آية8.

61. انظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة (كبر).

62 . آية 29.

63 . ثمة أمر يحتاج إلى بيان في الدلالة المعجمية التي حددت سن الشَّيخ بعد الخمسين، فهذا التحديد لا يؤخذ به عند الكلام عن أعمار الأجيال الماضية قبل الإسلام، إذ كان الناس يعمرون عقوداً طويلة فتختلف بذلك تقسيمات أعمارهم عن أعمارنا، ولذا نرى أن الوصف المجرد لكلمة الشَّيخ دال على تجاوز سن الشباب والدخول في النضج والاكتمال العقلي، فلا تعني لفظة الشَّيخ مجردة أي معنى سلبي يعيب الإنسان.

64 . إذا قيل: إن هذا يحمل على زوجه عليه السلام ردَّ عليه بأن آية الذاريات أتبعت العجوز صفة العقم، فيسقط الاعتراض.

65. ابن برد، بشار، ديوانه،، نشره محمد الطاهر بن عاشور، ط1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م. ج3، ص263.

66 . أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس (رواية الصولي)، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي، بغداد، دار الرسالة، ط:1، 1980م. ص679.

67. الأنبياء، آية 53.

68 . التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الخطيب (ت 502هـ)، ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، مصر: دار المعارف، ط:3، 1976م.ج4، ص377.

69 . أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم،أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: شكري فيصل، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ط:1، 1965م. ص196

70 . ابن هرمة، إبراهيم، ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق: محمد جبار المعيبد، النجف: مطبعة الآداب، ط:1، 1969م.ص70. الجروم: الذنوب. واسمألت: ضَمَرَتْ.

71 . أبو تمام، ديوانه، ج3 / ص 182.

72 . أبو نواس، ديوانه، ص577.

73 . المصدر نفسه، ص577.

74 . المصدر نفسه، ص681.

75 . المصدر نفسه، ص690.

76. انظر،ابن منظور، لسان العرب، مادة (دبل)، ومادة (دهر).وانظر في شأن الديبُل، البكري، عبدالله بن عبد العزيز(487هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط:3، 1996م. ج2/ ص569.

77 . أبو نواس، ديوانه، ص690.

78. الخزاعي، دعبل بن علي، ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمعه وقدم له: وحققه عبد الصاحب عمران الدجيلي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط:3، 1989م. ص139.

79 . أبو تمام، ديوانه، ج4، ص128.

80 . المصدر نفسه، ج4، ص560.

81 . أبو نواس، ديوانه، ص642.

82. أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص111.

83. المصدر نفسه، ص452

84 . المصدر نفسه، ص667.

85 . انظر قراءة لهذا الجمع في: المصري، عيسى، العلاقة بين الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، عمان: دار الرائد، ط:1، 2007م. ص 241 وما بعدها.

86 . ابن المعتز، طبقات الشعراء،. ص89.

87. أبو دلامة، زند بن الجون، ديوان أبي دلامة الأسدي، إعداد: رشدي الحسن، عمان: مؤسسة الرسالة، دار عمار، ط:1، 1985م.ص47. القديدة: شبه ساقها في هزالها كساق الناقة الهزيلة.

88. الديوان المجموع، ص53.

89 . المصدر نفسه، ص65.

90 . المصدر نفسه، ص67.

91. أبو الهندي، غالب بن عبد القدوس، ديوان أبي الهندي، صنعة: عبدالله الجبوري، النجف: مطبعة النعمان، ط:1، 1970م. ص 18.

92. الحسون، خليل، أشجع السلمي حياته وشعره، بيروت: دار المسيرة، ط:1، 1981م. ص255.

93 . المعيبد، محمد جبار، " شعر العطوي"، مجلة المورد، م1 (ع1)، 1971م.ص 82.

94 . أبو تمام، ديوانه، ج4، ص505ـ 506.

95. دعبل الخزاعي، ديوانه، ص 346. الدنف: المريض.

96 . شعر العطوي، المورد، ص 83.

97 . أبو دلامة، الديوان المجموع، ص 67.

98. أبو تمام، الديوان، ج4، ص378.

99 . الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت 331هـ)، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط:1، 1938. ص 270. «التأكيد من عندي».

100.أبو نواس، ديوانه، ص172.

101. المصدر نفسه، ص 165.

102.أبو نواس، ديوانه، ص 129.

103 . المصدر نفسه، 148. الختر: الغدر والخديعة.

104. المصدر نفسه، 221 ـ 222.

105. وهي التي اعتمدها الدكتور كمال أبو ديب، انظر الجدلية، ص 169 وما بعدها. والديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط:1. 1953م. ص 31.

المصادر والمراجع

المصادر:

1. ابن الأبرص، عبيد، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: تشارلز لايل، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط:2، 2003م.
2. الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ) الأغاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط:2، 1997م.
3. الأصمعي،عبد الملك بن قريب (ت216هـ)، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف، ط:1993،7م.
4. الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، ط:1، 1950م.
5. الباقلاني،أبو بكر محمد بن الطيب(ت 403هـ) ،إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، ط:3.
6. ابن برد، بشار، ديوانه،، نشره: محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط:1، 1957م.
7. البكري، عبدالله بن عبد العزيز (487هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط:3، 1996م.
8. التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الخطيب (ت502هـ)، ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام،القاهرة: دار المعارف، ط:3، 1976م.
9. شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:2، 1987م.
10. الجرجاني،أسرار البلاغة،قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني،ط:1991،1م.
11. دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ط:3، 1992م.
12. الجهشياري، محمد بن عبدوس(ت 331هـ)، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط:1، 1938.
13. الخزاعي، دعبل بن علي، ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمعه وقدم له وحققه: عبد الصاحب عمران الدجيلي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط:3، 1989م.
14. أبو دلامة، زند بن الجون، ديوان أبي دلامة الأسدي، إعداد: رشدي الحسن، عمَّان: مؤسسة الرسالة، دار عمار، ط:1، 1985م.
15. الذبياني، النابغة، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، ط:3، 1990م.
16. ابن ربيعة، لبيد، شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس الكويت، ط:1، 1962م.

17. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط:1، 1997م.

18. أساس البلاغة، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط:1،2003م.

19. الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم (ت 476هـ)، كتاب الحماسة، دراسة وتحقيق: مصطفى عليان، مكة المكرمة: مطبوعات جامعة أم القرى، ط:1، 1423هـ.

20. ابن الصمة، دريد، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، مصر: دار المعارف، ط:1،1985م.

21. الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى، (ت 178هـ)، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، مصر: دار المعارف، ط:10، 1994م.

22. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: شكري فيصل، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ط:1، 1965م.

23. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن،، تحقيق: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ط:1.

24. المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن(421هـ) شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط:1، 1991م.

25. ابن المعتز، عبدالله (ت 296هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، مصر: دار المعارف، ط:3،1976م.

26. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ) لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط:1، 2000م.

27. النَّحَّاس،أبو جعفر (338هـ) شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق: عمر الفجاوي، عمان: منشورات وزارة الثقافة، ط:1، 2002م.

28. نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس (رواية الصولي)، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي، بغداد: دار الرسالة، ط:1، 1980م.

29. تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط:1، 1953م.

30.ابن هرمة، إبراهيم، ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق: محمد جبار المعيبد، النجف: مطبعة الآداب، ط:1، 1969م.

31. الهندي، غالب بن عبد القدوس، ديوان أبي الهندي، صنعة عبدالله الجبوري، النجف: مطبعة النعمان، ط:1،1970م.

المراجع:

32. أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء والتجلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط:3،1984م.

33. إمبسون، ويليام، سبعة أنماط من الغموض، ترجمة: صبري محمد حسن،القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط:1، 2000م.

34. أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ،، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط:7، 1992م.

35.بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، ط1، ترجمة: نعيم الحمصي، دمشق:منشورات وزارة الثقافة، ط:1، 1970م.

36. النقد والحقيقة، ط1، ترجمة: وتقديم إبراهيم الخطيب، مراجعة: محمد برادة، الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط:1، 1985م.

37. حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها،، القاهرة: عالم الكتب، ط:5،2006م.

38. الأصول،دراسة أبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط:1، 1988م.

39. حسن، عباس، النحو الوافي، مصر: دار المعارف، ط:4، 1976م.

40. الحسون، خليل، أشجع السلمي حياته وشعره، بيروت: دار المسيرة، ط:1، 1981م.

41. دي سوسير، فردينان، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك المطلبي، بيت الموصل: الموصل، ط:1، 1985م.

42. راي، ويليام، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بغداد: دار المأمون، ط:1،1987م.

43. ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، ترجمة: محمد عصفور، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد: 206، 1996م.

44. عمر، أحمد مختار، علم الدلالة،، الكويت: مكتبة دار العروبة، ط:2،1982م.

45. المصري، عيسى، العلاقة بين الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، عمان: دار الرائد،ط:1، 2007م.

46. ناصف، مصطفى، مشكلة المعنى في النقد الحديث، القاهرة: مكتبة الشباب، ط:1،1970م.

الدوريات:

47. المعيبد، محمد جبار، " شعر العطوي "، مجلة المورد، م1 (ع1)، 1971م.